ريحانة الشهداء

محمود فهمي النقراشي

المقدمة بقلم الأستاذ الكبير

عباس محمود العقاد

نظمي لوقا

ماجستير في الآداب

obeikandl.com

obeikandl.com

هذه تحيـة يسيرة للرجل
الذى كنت إذا غامت نفسى
وضاقت بفاجها ذكرت مايلقى
فتصغر لدى نفسى وأتأسى ...
والذى كان مصرعه خليقـاً أن
يبغض الينا الحيـاة، لولا أن
قيمتها — كما عاشها هو — فيما
نعطيها لا فيما نستأديها .

المؤلف

يونيه سنة ١٩٤٩

obeikandl.com

obeikandl.com

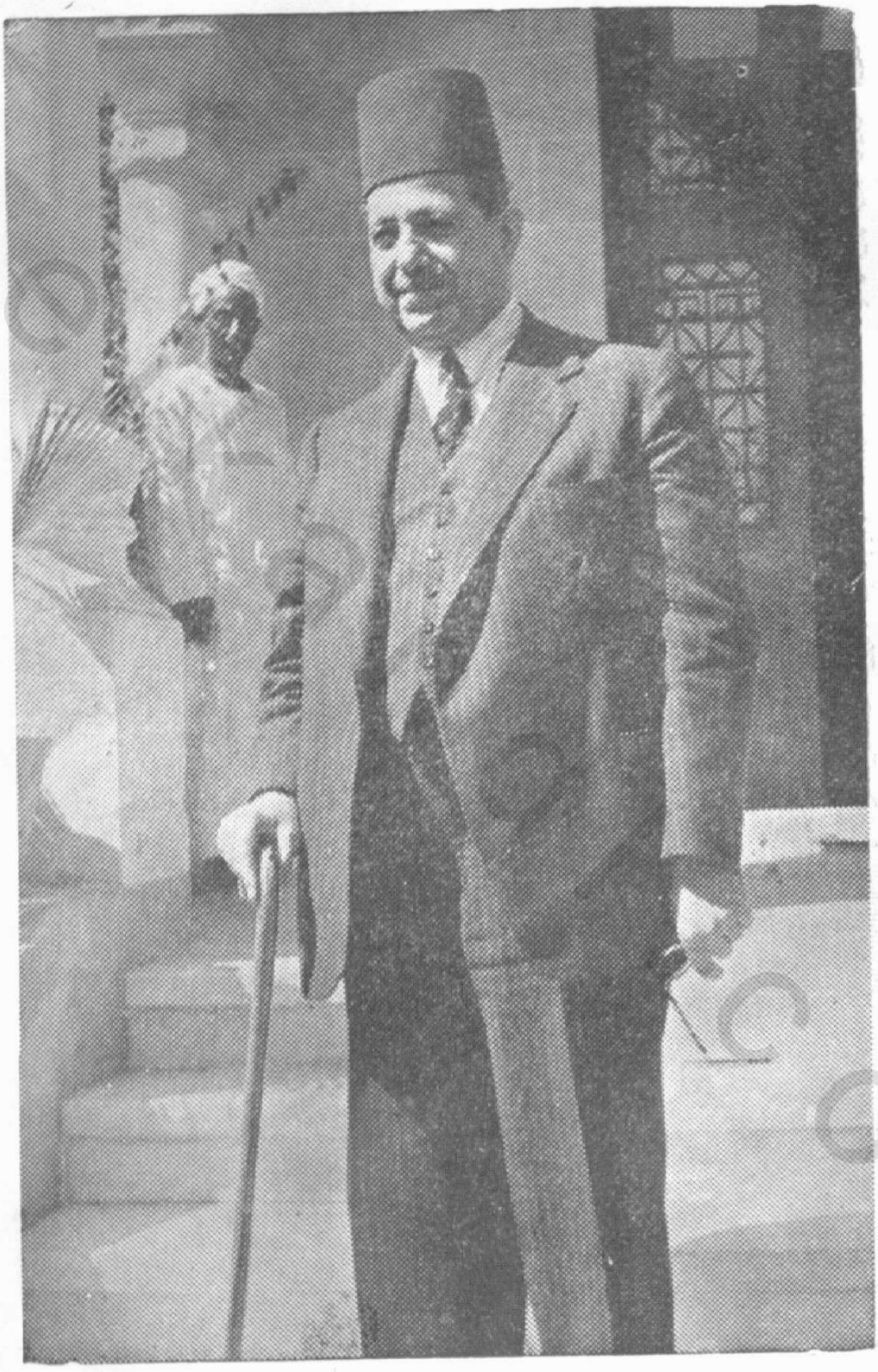

obeikandl.com

أيغال الحنان فيه حنانا كاد يحصى به مع الضعفاءِ

أم يغال الحفاظ فيه حفاظا يتحدى جحافل الأقوياءِ

أم يغال العفاف أصدق ما كا ن عفافا في مستسر الخفاء

أم يغال الأنصاف يحمى عداه حين يقضى من صفوة الأصفياء

أم يغال الذكاء يخترق الحجـــب بنور يهدى كنور ذكاء

أم يغال الزهد الذى حار فيه كل مغرٍ من سطوة وثراء

أم تغال الخلائق الزهر كادت تترقى إلى ذرى الأنبياء

أم يغال الصبر الطويل على الجهـــد بلا منة ولا إعيـاء

أم يغال الجهاد في حب مصرٍ؟
ويح مصرٍ من تلكم النكراء

إن محمودًا الذى فقدته واحد لا يقاس بالنظراء

عباس محمود العقاد

obeikandl.com

مقدمة

سيرة العظيم مصباح فى أمته .

عصرنا هذا أحوج إلى المصابيح الهادية ، لأنه العصر الذى تعددت فيه مذاهب الرأى ، وتشعبت فيه مفارق الطرق واحتاجت فيه كل أمة إلى تعزيز آدابها وأخلاقها بالمثل المحسوسة والنماذج الحية ، بل احتاجت فيه عقائد الدين نفسها إلى تعزيز الايمان بالمثل المحسوس والنموذج الحى من سير العظماء .

ولا نعرف بين عظمائنا المصريين من هو أصح للاقتداء به فى العصر الحاضر من عظيمنا الشهيد « محمود فهمى النقراشى » رحمه الله .

لأن من العظماء من هو قدوة فى الأمانة والنزاهة، ولكنه لا يصلح للاقتداء به فى الكفاءة العملية أو الكفاءة العقلية، وقد يكون على جانب عظيم من كفاءة العمل وكفاءة العقل ولكنه لا يصبر على المثابرة ولا يتصف بالجلد على الجهد الدائم والنشاط المتواصل ، ولكن النقراشى رحمه الله كان قدوة فى كل هذه

الخصال منذ مطلع حياته الى يوم وفاته ، وكان آية فى متانة الخلق ومضاء الذهن وثبات العزيمة ومواصلة الجهد فى مختلف الشئون بغير كلل ولا تواكل ولا وناء .

كان أمين الضمير ولم يكن أمين اليد وكفى . ومن أمانة الضمير انه تولى المناصب التى يستطيع صاحبها أن يجمع الثروة ولا تؤخذ عليه ريبة ، فكان بيده الأمر فى وزارة المواصلات ووزارة المالية والرقابة على أموال الأعداء ، وكانت ولايته لهذه الأعمال فى عهد الايراد والاصدار والترخيص والمنع بغير ممانعة ولا منازعة ، فمات كما يعلم الناس جميعا وهو فقير .

وكانت أمانته تلك الأمانة التى تقوى على محنة الغواية النفسية كما تقوى على الطمع وفتنة الحطام . فكثيرا ما أغضب اصدقاءه ليحمى خصومه من الظلم والاجحاف ، وكثيرا ما تعرض لسوء السمعة فى سبيل الواجب ، وما عهدنا أمانة الأكثرين الا طلبا للسمعة وحرصا على الثناء .

وقد تعود الناس اذا ثبتت لهم صفة الأمانة فى عظيم من العظماء ان يهونوا من هذه الصفة العالية بالقدح فى كفاءته العملية ، ولكن الله ابى للشهيد الا ان يكون القدح فى كفاءته العملية كالقدح فى أمانته النادرة : كلاهما عسير وكلاهما افتراء بغير دليل .

ففى وقت واحد كان يدير وزارة الداخلية ووزارة المالية ويقوم بأعمال الرئاسة وأعمال الحاكم العسكرى ويواجه البرلمان ويشتغل بقضية فلسطين وقضية السودان فضلا عن قضية البلاد.

وهى أعباء جسام تفوق طاقة الوزراء العديدين فى الأوقات المألوفة فضلا عن أوقات الأزمات والطوارق .

ولكنه تولى الداخلية وعصابات المفسدين تعبث فى البلاد بعد الحرب العالمية ، وتولى المالية وأزمة العملة والاستيراد على أشدها ، واشتغل بقضية فلسطين وهى فى حرب ، وبقضية السودان وهى فى غليان ، واشتغل على ذلك كله بمناهضة الوباء فقضى على العصابات ، وزاد موارد البلاد ، وفتح الأسواق لمحاصيلها التى كانت على خطر من المقاطعة والمصادرة ، ودبر السلاح لجيش لم يكن له سلاح ، وشهد التاريخ فى أيامه حركة وطنية ورأيا عاما فى السودان يحسب لها المحتلون كل حساب وكان لسياسته المعروفة ـ وغير المعروفة ـ أثر فى ابتعاث تلك الحركة الوطنية وتأييد ذلك الرأى العام .

فاذا كان التطاول على أمانة النقراشى فوق وسع العدو المتطاول ، فليس القدح فى كفاءته العملية بأهون من ذلك ولا بأدنى منه إلى الاقناع .

ومن فضول القول أن يقال أن هذه الكفاءة المبينة لا تتأتى لرجل لم يكن له نصيب واف من الذكاء المتوقد والنظر الثاقب والفكر المحيط بما يتصدى له من جسام الأمور .

ولقد يكون الانسان كفؤا ذكيا مفكرا ولكنه يكل من العمل الذى لا ينقطع ويسأم من المثابرة التى يقابلها الجهلاء والمغرضون بالنكران ، ولكن فقيد مصر العظيم كان أنشط مايكون على النكران وأثبت مايكون عزما حيث تخور العزائم وتفتر الهمم وتصدف النفوس وهى وافية العذر عند الكثيرين .

إن سيرة هذا الرجل النبيل أصلح السير للقدوة فى هذا الزمن ، لأنها السيرة التى بلغ من قدرتها العجيبة انك لا تصدقها لو لم تعاصرها وتلمس كل واقعة من وقائعها .

ويقيننا ان المجهول من مآثر هذا الشهيد الكريم أدعى إلى العجب مما علمه الخاصة والعامة حتى الآن . ففى كل مرحلة من مراحل الجهاد الوطنى كان له الفضل الذى يظهر المطلعين والفضل الذى لا يظهر ولم يظهر بعد لغير القليلين . فاذا كانت مزية العظمة التى نقتدى بها انها تقنع المقتدين بامكان مايحسبونه مستحيلا ووجود مايحسبونه معدوما ، فليس أصلح من سيرة « النقراشى » للاقتداء بها عند من يطلبون الكمال ويستبعدون المسافة ويستصعبون العناء ، ويستغربون الجزاء .

لقد كان بيننا حقا ، وكان على جميع هذه المزايا والصفات التى يستكثر الناس أن تكون ، ويستكثرون خاصة أن تكون فى هذا الزمان .

كان مع هذه المزايا والصفات كلها ، انسانا ، يجمع اللطف والرحمة إلى صرامة الصدق والأمانة ، وصلابة العمل والقدرة وحرج النفس من أثقال التكاليف التى نهض بها غير مجزى عليها ، أو مجزيا عليها بنقيص حقها ، ومنه الموت بيد مغتال .

وقد كان مولودا بصفات شهيد ، وهكذا يموت الشهداء .. ولعل هذه الصفحات التى حياه بها الأديب الألمعى «نظمى» أن تكون دليلا بليغا من أدلة كثيرة نرجوها ونرجو أن نطمئن بها على هذه الأمة ، لأنها أمة تكفر عن خطيئة جهلائها فلا يضيع فيها دم الشهداء .

عباس محمود العقاد

obeikandl.com

ما همت بكتابة هذه الصفحات
ألا تقسمني الوجل والخجل :
فليس لهذا الأمر إلا قلم واحد
هو قلم العقاد
ولكن سرّي عني بعض ما أجد
أنه يستضاف في الكوخ المتواضع
ويستضاف في القصر الباذخ
وأنه قد تهدى الزهرة اليتيمة
وتهدى نفائس الأعلاق ..

فاطمة

obeikandl.com

obeikandl.com

مقياسان متقابلان

للرجال والساسة منهاجان ومقياسان : مقياس « المنفعة » ومقياس « الأخلاق » أو شريعة « الواجب » . فحساب المنفعة يقوم على تقدير المكاسب والخسائر قبل الاقدام على الأمور، وبعد الفراغ منها ، يستوى فى ذلك التاجر والسياسى ، لأن نظرهما إلى « البضاعة » التى يتعاملان فيها واحد . فالتاجر يسعى إلى الكسب لنفسه أو للمؤسسة التى يعمل باسمها . والسياسى يسعى إلى الكسب لنفسه أو للهيئة التى ينتسب اليها .

وكما لا يتقيد التاجر الفرد بقوانين التشريع أو قوانين الأخلاق إلا بمقدار ما يدفع عن نفسه الفضيحة التى تضير مركزه فى السوق ، ويجتهد مع هذا فى التحايل على تلك القوانين توصلا لأكبر كسب مستطاع مع حفظ المظاهر وتغطية « العمليات » بما يضمن لها سلامة « الشكل » . كذلك لا يتقيد صنوه السياسى المنتفع أو النفعى بقوانين الأخلاق أو قوانين

المعاملات الدولية والداخلية إلا بمقدار ما يحفظ على تلك العمليات مظهر السلامة الشكلية . فالحيلة كل الحيلة فى الخلاص من أوهاق تلك القوانين التى تحول دون إطلاق العنان للمنافع مع التظاهر باتباع تلك القيود والتزام حدودها .

فالاعلان ، والترغيب بالحق والباطل ، والغش فى الكيل والميزان والنوع ، واستغلال الظروف وحاجات الناس ، من وسائل الكسب فى التجارة وفى السياسة النفعية على السواء .

هذه هى خطة المنفعة.

وغير هذه الخطة ما يعرف فى عرف الأخلاق بشريعة « الواجب »: فمن يصدر عن تلك الشريعة لا يستهدف مصلحته أو مصلحة من يعمل باسمهم دون أن يكون ما «يليق» و«يجمل» مقدما على كل مصلحة مهما كانت . ومحك هذه اللياقة فى خاتمة المطاف أن ترضى عما تعمل لو انه صدر عن خصمك فيما يمسك .

فكأن شريعة الواجب لا يميزها من خطة المنفعة عمليا إلا اختلاف محيط المنتفعين. فخطة المنفعة يضيق نطاقها حتى لا تتسع إلا لصاحبها ومن معه من الشركاء أو الأنصار والأصهار ، فى

حين تتسع فى شريعة الأخلاق حتى تشمل المخالفين والمناهضين ومن هنا جاء تحايل النفعى على « الحق » و « القانون » ليكسب الشكل ويستر المظهر . وكان ديدن ذى الخلق تحرى « الحق » و« القانون» حتى لا يكون محل للمجافاة بين «الشكل» و «الموضوع» و«المخبر» و«المظهر» .

وما أحسب تاريخ مصر قد حفل بمثل للسياسى الذى يدين بشريعة الواجب أبرز من المثل الذى جلاه الشهيد « النقراشى » للناس سياسيا وحاكما ، خصما وصديقا ، وزعيما وواحداً من آحاد الناس . فقد كانت شريعة الواجب هى القطب الذى تدور عليه حياته فى كل تلك الأطوار ، على اشتطاط الظروف فى تثبيط همته وإيهان عزيمته والقعود به عن غايته . ولكن عوامل المناهضة والقعود كانت تنقلب بسر فى تلك السريرة الفريدة إلى قدرة على الثبات والصمود ، وإلى قوة معينة على أطراح القيود واقتحام السدود .

ولن ينسى للنقراشى أنه أرادها على سنة ابن الخطاب .

ولن ينسى له قبل هذا نفسه أنه أرادها على خطة ابن

الخطاب فى أبعد الأزمان شبها عن زمان ابن الخطاب.

أرادها فى زمن أعور ، يرى اللقمة ولا يرى الوصمة ، ولا يفرق بين النعمة والغمة ، ولا يميز بين النور والظلمة ، مخدوع فى نفسه ، حبب اليه خادعوه ، وبغض اليه ناصحوه ومصلحوه .

وما كان رحمه الله من الحالمين ، ولا كان رحمه الله مخدوعا فى حقيقة الناس وظروف الزمان وقلة الوازع وارتفاع اليقين الرادع . ولكنه مع هذا أرادهم على تلك الشريعة لأنه لم يكن له عن ذلك محيص . فلأن نظر الناس بأعين عشواء ، فما حيلته وهو ينظر بأعين صحاح ؟. وما كان ليعشى كما يعشون لو شاء .

آية الخلاف

ومن اكبر البينات على اختلاف الطراز الذى ينتمى اليه النقراشى عن طراز سائر الناس ، ماطالما لاكته الألسنة فى كل مسمع من أنه « لغز » لاتفهم له بواعث ولا يسبر له غور .

وليس للغز هنا غير معنى واحد . أن تتوقع طبيعة للشىء يكذبها الواقع حتى تحار فى تصورها على حقيقتها . وتلك هى آية اختلاف الطبائع التى لا آية وراءها . لأن الانسان عبد ما يألف ، وعدو مايجهل . وتصور كل انسان انما يكون على عهده بنفسه ، فذو المنفعة وطالبها لايتصور الناس على غير هذا الغرار . وقد عهد الناس النقراشى لايجرى وراء منفعة نفسه أو منفعة اصحابه وانصاره . فيقع هذا موقع الغرابة حتى ممن يكون هذا التعفف لصالحهم ، وتكون النفعية ـ ان وقعت ـ على حسابهم دون غيرهم .

ولكن اذا كان حد « اللغز » هو مخالفة المألوف والمتصور والمتوقع ، فأحرى أن يكون طراز النفعيين « لغزاً » فى نظر المطبوعين على الاستقامة : لأنهم بخلاف مألوفهم فى انفسهم لولا انه يسهل على ذى الطبع المستقيم فهم الأعوجاج ، ولا قبل للأعوج بفهم الإستقامة بحال ، ذلك أن فى وسع البصير أن يتصور العمى لأنه سلب ملكته الخاصة ، أما الأكمه فلا يسعه أن يفهم النور مهما حدثوه عنه . أو يدرك الألوان مهما أطنبوا له فى الكلام عنها . كذلك المستقيم يميز الخبيث من الطيب ، والنور من الظلمة . أما المعوج فلا يعرف ما النور ، لأنه مكفوف عن ذلك بقصور فيه .

وهكذا يكون طراز النقراشى « لغزاً » بالضرورة عند غير أهل طرازه من الناس ولا يكونون هم عنده لغزاً على الاطلاق .

بل الى هذا يرجع إشتداد امثال النقراشى فى حرب ما يخالفهم . وحرصهم على تجنب الشبهات حرصا يحسبه الجاهل شططا . وانما هو حذر البصير أن يغشى عينيه الغبار . وفرق النظيف أن تعلق الأقذار له بأزار ، فرقا لاتفهمه الخنفساء أو الصرصار ـ ولها العذر ـ ولكن بين هذا وأن يطلب اليه التقدم

بين يديهما بالأعتذار ، فإلى هنا وينفق الحمار ...

ومن الناس من إذا أحسنوا إدراك الفوارق بين الحق والباطل ، ظل ذلك مقصوراً لديهم على المعنى الذهنى ، ولم يملك منهم ناصية الوجدان فيغدو باعثا نفسيا . أما طراز النقراشى فلا انفصال فيه بين المعتقد بالذهن وبواعث السلوك والعمل .

وتلك لعمرى أم المشاكل فى الأخلاق .

فهذا السكير المدمن ، أو هذا المجرم قاطع الطريق ، انهما ليخشعان إذا تلى عليهما حكم الله فى الخمر والقتل والسرقة والإفساد فى الأرض . وان الواحد منهما ليعرف انه لا عاصم له من النار ، ولكنه مع الإدراك الذهنى لخطئه وغيه وفساد عمله ورأيه ، يمضى على رسله فى السوء ، وقد يساوره الندم ، ولكنه لا يرده عما يفعل . لأنفصال مابين ذهنه ووجدانه ، كأنهما ملكتان لشخصين مختلفين ، وما ظنك بالعين التى ترى الهوة عن شمال ، والجادة عن يمين ، فلا يأتمر برأيها القدمان ، بل تجنحان الى يسار حتى تتردیا بالعين وصاحبها فى الهوة الفاغرة . كذلك من يرى الحق بذهنه وإدراكه ويطيع حين يعمل مبدأ آخر هو الشهوة والهوى والمنفعة .

كذلك قد يبدو الخير فلا يخفى ، ولكنه يخفى . وكذلك يبدو الخير فيكون هو المطلب والمسعى . .

وشتان هذان . .

ومن عجب أن يراهما فريق من الناس يستويان .

وذلك هو الفريق الذى لا يرى الخير بعقله أو بصيرته أصلا وانما هو يشتهى ، ثم يجعل من مشتهاه الخير والحق ، لا لنفسه فحسب ، بل للناس كافة .

وأولئك من ختم الله على قلوبهم والعياذ بالله .

obeikandl.com

فزعة الدونية

فدعوى اللغز إذن علم على داء المرجفين بها. فهم أما لا يفهمون الاستقامة لجهلهم معنى العدل والحق والشرف. أو هم يعرفون ذلك المعنى باذهانهم ويعجزون عن تحقيقه فى أفعالهم لأن الهوى غالب عليهم. فاذا اعترفوا بالحقيقة صغروا فى عين أنفسهم بقدر مايكبر فيها الشريف المستقيم الذى استطاع ماعجزوا عنه من الشرف والأمانة والاستقامة. فما أحرى أن يسمى إرجاف هذا الفريق « فزعة الدونية » لأن وضوح فضل الشريف المستقيم اعتراف بأنهم « دون » ذلك المستوى قدرة وفضلا فهم يفزعون إلى هذا الإرجاف والتغابى احتيالا منهم لانكار فضل الشريف. ابقاء على كرامتهم فى نظر أنفسهم وصونا لذواتهم من الضآلة و التحقير.

ونرى فى هذا المقام أن ننبه إلى أمر قد يختلط على بعض الناس. فرب سائل يقول: ولكن من العظماء والمشهورين من

يقر الناس له بالفضل مجمعين ، ولا يغصون بهذا الأقرار ولا يضيقون به . فلماذا لايكرهون هؤلاء « الكبار » لكبرهم بل لعلهم يحبونهم لهذا الكبر نفسه حبا لاتحفظ فيه ؟

ويرفع هذه الشبهة أن نذكر الفرق بين « الصورة المكبرة » و« الصورة المخالفة » فالغمر من الناس يحب فى العظماء والكبراء ـ على الأغلب الأعم ـ صورة مكبرة منه ، ولما كان يتمنى أن يكونه ، فهذا الكبير مثله فى كل شىء ، ولكنه مكبر فى صفاته وقدرته عشرة مرات أو مائة أو أكثر أو أقل . ولكن « السحنة النفسية » واحدة و « النظرة إلى الحياة » واحدة لاتختلف فى المعدن والقيمة وأن اختلفت فى الحجم أو المقدار . كما أن الصورة الشمسية الكبيرة لاتختلف عن تلك التى فى حجم الظفر إلا فى ابعاد الرسم ، أما « المعنى » و« النسبة » فواحدة فى هذه وتلك .

فالعامى يحب من الكبار من هو شبيه مكبرا فى الحجم المعنوى بآماله وذوقه وأهدافه ووسائله .. وعيوبه ايضا . بل لعل العيوب مقدمة فى بواعث الحب على المزايا والمحاسن .. لهذا قد تعجب العامى شدة العظيم على خصمه ، واختصاصه أولياءه ببره ، وحبه للزهو ، والتجاؤه للمغالطة فى التبرير والتشهير واقباله على متاع الدنيا وزخرفها .

هذه هى « الصورة المكبرة » التى تحبها العامة لأنها مثلها المفهوم المأمول . أما « الصورة المخالفة » فشىء آخر .. لا تفرقها من « الصورة الصغيرة » الابعاد ومادة الرسم ، بل هى « خلقة جديدة » فلا الشكل هو هو . ولا السحنة هى هى . ولا المعنى أو النسبة بين الأطراف والملامح هى هى ... فتنكر الصورة الأصلية هذه « الصورة المخالفة » التى تغض منها للفارق الكبير بينهما فى الجمال والتعبير . ويا ويل « الصورة الجميلة » إذا لم يكن فيها طرف من عيوب « الصورة الأصلية » فلا زهو ثمت ولا مغالطة ولا نفاق ولا تألف قلوب ولا نكال بخصوم ... ويزيد الطين بله احتقار متاع الدنيا وزخرفها اللذين لا مدار لحياة العامى حول شىء غيرهما . ومن هنا يأتى شعور العامى بالحقد على هذا العظيم وبغضه به ، لأنه يكشف ضآلته وينددبها .

وقد يقال أن من هذا الطراز الرفيع من عظماء الانسانية من أحبه الناس . فما عرف أن الأنبياء يكرههم المؤمنون . وأما سمعة ابن الخطاب وحب الناس لسيرته فليس مثلها شىء .

ولكن يكفى أن نذكر أن النبيين لا يعيشون فى أيامنا .

وإنما نحن مسلمون بما أتوا به ورثنا ذلك التسليم أمراً مقضياً. أما فى عصر هؤلاء الأنبياء، فما من نبي منهم إلا لقى من قومه إيذاء شديداً. ففريقاً كذبوا، وفريقاً يقتلون. وما بعد ذلك دليل على التنافر وحقد العامة على الممتازين.. فى حين يجد القائد الغليظ الإعجاب ممن يدفعون له ثمن زهوه وتجبره. ويضفرون بدمهم أكاليل نصره. لأن الممتاز بروح من عند الله صورة مخالفة. فى حين أن القائد صورة مكبرة!

فإذا ما آمن الناس بالنبي المرسل، كانوا أشد فى التحمس له من مخالفتهم له، ومحضوه الحب والإجلال، لأنه «من عند الله»، ولأن امتيازه أو عصمته له مدد عال فوق ذرع البشر، فهذه الميزة المستمدة لاتحفظ الناس ولاتحنقهم، لأنهم يبررون قصورهم عن شأوها بأنها رزق. وأنها غير مبذولة لسائر الناس. فلا تثريب عليهم أن يتجردوا منها. لأنها ملكة ليس الأصل حصولها لهم فيكون سلبها عنهم عدماً كالعمى والصمم.

فإذا تركنا طبقة النبيين إلى أصحابهم مباشرة، وجدنا الأمر على خلاف ذلك؛ فهذا عمر بن الخطاب، صاحب الرسول، وولى الأمر فى عهد لازالت الحماسة فيه للدين على أحرها،

لا يسلم من هـــذا عند سواد الناس . فهم يكبرونه ويهابونه . ولـكنهم أكبر الظن لايحبونه إلا على مضض . . فهذه امرأة يطلب عمر يدها فترده وهى تقول : « مالى ولرجل كأنه يرى الله بعينيه ؟! » . فإذا المزية التى كان أولى أن يفضل بها الناس كأنها السقطة التى يعاب بها دونهم !

ولم تكن أمور الناس قد فسدت بعد هذا الفساد .. وكانت للدين سطوته فى النفوس لا تعدلها سطوة . . وللفاروق مدد من صحبة الرسول ؛ فمزيته تشبه أن تـكون مزية مستمدة . . فمـــا بالك بنظر الناس إلى « المزية المستقلة » التى لا عذر لمقصر عن شأوها باختصاص صاحبها بمنزلة فوق الناس لا تتاح لهم . لتلك هى الملكة التى يكون العطل منها عاهة ظاهرة ، لا يشفع لهـــا تفشيها . فأن يكون مبصر واحد بين الوف العميان ليس شافعاً له فى عماهم ، ولا عزاء لهم بالوفرة والنفر عما يغص قلوبهم من الحسد والحرد . فـكأن هذا البصير الواحد قد سلب نور عينيه أنوار عيونهم مجتمعين . فهو مسؤل عن عجزهم ونقصهم بكماله « غير المفهوم » لأن الفهم والتقـــدير معناهما الإقرار بالعجز والقصور . .

وهكذا تجنى المزية المستقلة على صاحبها ما لا تجنيه المزية المستمدة

لأنها تسد الأبواب فى وجه من يتلمس لنقصه الأعذار . . فتفزع الدونية إلى التجـاهل والتمحل بالألغاز والأسرار ، رغبة فى تنقيص ذى المزية . وردآ لاعتبار أنفسهم يخترعون الأكاذيب ويلفقون الخرافات ، فإن قيل لهم هذا الذى تقولون لا يعقل . قالوا :

— ولـكننا نصـدقه . لاننا مجبرون على تصديقه . فلو لم نصدقه لصدق علينا التحقير .

فعيب ذى المزية المستقلة هو « دونية » الأغمار . دونية تحتال بكل حيلة لستر حقيقتها كى لا تفتضح.

ولـكن . . هيهات . . .

خطايا الشيطان

ولن تجد للدونية كنفا موطأ كغفلة الغرور . لان الغرور يضع أصلا مسلما به يجب أن يظل مصونا على كل حال هو كمال صاحبه فى كل شىء . فاذا عرض مايجرح هـذا الكمال المزعوم أو يعرضه للتزييف والبطلان حورب هذا العارض بكل سلاح . وهكذا يفترض المغرور فى الفاضل الممتاز كل نقيصة ترد عن نقصه وعجزه خطر الافتضاح . وهو فى الوقت عينه ممنوع بهذا الغرور من تكميل نفسه وملافاة نقصه . لان طلب الكمال يجب ان تسبقه معرفة النقص وتصور الكمال واشتهاؤه . وليس لمغرور طاقة برؤية نقص فى نفسه وتصور كمال إلا فى ذاته .

وقد كان هذا الغرور من أكبر روافد الدونية الفازعة لحرب النقراشى والتأليب عليه فقد لمس المربون والمشتغلون بالمسائل العامة هذه الظاهرة فى فريق من « الجيل الجديد »

على وجه الخصوص ، لأن غرور هؤلاء النفر بارز باسوأ أعراض الغرور اطلاقا من جهل على حب للجهل ، وخسة على كراهة للاريحية ، واهدار للقيم والجد، واستهانة بالأقدار، مع تأله فارغ تصحبه كل منقصات الكرامة وموجبات الرزاية والتحقير

تميز هذا الفريق من الناشئة بالعزوف عن العلم عزوف ازدراء ، وباحتقار الآباء وأهل السن والمكانة ، مع حب الفخفخة فى المظهر ، والتخنث فى الزينة ، والتواطؤ على تنقيص الكبار . فى غير محاولة للفهم والتدبر .فما من طالب من هؤلاء الا ويهمل الدرس . ويريد الامتحان مجازا إلى « شهادة زور » ظاهرها علم وباطنها جهل فاضح ، وهو إلى ذلك ، أو لذلك لايلتفت إلى شرح معلم ، بل يعبث بنظام الدرس عمدا تبجحا وتوقحا ليس غير ، وهو فى البيت يكلف أباه رهقا بمطالب الزينة واللباس. ليتخطر فى الطريق مياس القد متخلع الأعطاف فاذا حيل بينه وبين شىء من هذا الذى يشتهى سخط على الدنيا ورمى النظام الاجتماعى بالاختلال ، وحق عليه فى نظره القلب والاهدار .

وانك لتجد الطالب الصغير من هؤلاء لايحسن حل مسائل الحساب ، أو قراءة سطر فى صحيفة يومية قراءة صحيحة، ولكنه

يحاكم الوزراء غيابيا ، محاكمة لا استئناف لها ، لتقصيرهم فى أمور السياسة الدولية ، والنظم الاقتصادية ، والمشكلات الدستورية والفقهية ، فيعلن الاضراب يسقط فيه هذا ويرفع ذاك ، حارقا عربات الترام . مطالبا بديون مصر على انجلترا وبقطع العلاقات الاقتصادية معها فى آن ... ومطالبا بدولية القضية وبمقاطعة المجامع الدولية فى نفس واحد ... ويريد أن يكون بيده مصير الامة وهو لايؤتمن على ميراث من أبيه قدره عشر جنيهات ، بل يقام عليه فيه وصى .

وحقيقة الأمر أنه لايريد ، ولا يعرف ماذا يريد . وانما هى اعراض الغرور المركب والعياذ بالله .. فالشاطر من هؤلاء يفرض لنفسه أنه ـ لمجرد وجوده ولمحض «شبابه» ـ سيد العارفين ومرجع المسئولين. ينبغى أن يعرف الوزير أنه وزير لانه أراد له هذا وأنه باق فى منصبه لأنه سمح له بالبقاء . وكل شىء فى سبيل تقرير هذا « الدستور » هين مهما جل ، ويسير مهما عظم واستطال .

أما لماذا يظن « المحروس » بنفسه هذا الظن ، ولماذا يريد الناس ان يسلموا له به ، فامور لاسبيل الى ادراكها . وانما هى

تسلم تسليما . . فهى كذلك لانه زعمها أو خالها كذلك. ويكفى جدا ان يزعم شيئا أو يخاله حتى يكون .

هـــذا هو « منطق الاهواء » الذى يسيطر على هؤلاء المساكين . وقد انزلقوا اليه بفعل عوامل عدة ، اهمها سقوط هيبة الاهل فى المدن ، وتنازع المرأة والرجل السيطرة داخل الاسرة ، حتى لا يتورع الوالدان عن النشـــاحن والتقاذف بالمطاعن على ملأ من الأطفال . فانكشف لهؤلاء عيب آبائهم فسقطوا فى نظرهم وسقطت حجتهم على أبنائهم فى كثير مما يزجرون هم عنه . وكثرت من جهة أخرى الفضائح المكتوبة فى الصحف عن الأسر وأحوالها ، وعن الكبراء وعيوبهم الخلقية ، رهن التاريخ كانوا أم كانوا معاصرين ، وتراشق أقطاب الاحزاب بالتهم المخلة المسقطة للمروءة . فكان ذلك أدعى لسقوط الهيبة فى الخارج كما سقطت هيبة الوالدين فى داخل البيت .

وكان من الممكن أن يدفع هذا الناشئة إلى طلب كمال لم يوفق إليه أهلهم وقادة أمتهم. لولا أن ضياع الثقة فى الكبار وسقوط سلطانهم وهيبتهم على النفوس صاحبتة مضاعفات حالت دون ذلك . فقد رأى الناشئة تفشى المحسوبية ، ووصول الجاهل إلى

مايعز على العالم ، وذلك بالدخل والتمليق أو المصاهرة فقر فى نفوس هؤلاء أن العلم والجدعناء لاطائل تحتهما. وأن المعول على « الأشكال » و « المظاهر » والتحايل على كسبها . فالمهم أن تصل ، أما كيف تصل فلا يعنى أحدا ولا ينبغى أن يعنيك .

فاذا أضيف إلى هذا احتضان بعض الساسة للطلاب، وحضهم اياهم على الإخلال بالنظام والاضراب عن تلقى الدروس، وتملقهم بأنهم يملكون اسقاط الحكومات وتوليتها وأنهم - كما هم - المثل الكامل والقوة الفعالة . هذا إلى أموال تبذل لافسادهم بسخاء ووظائف تغدق على الفاشل منهم إذا تولى حزبه الحكم لأنه يحسن التصفيق والزعيق. فكيف لا يعشش فى قلوبهم الغرور ويبيض ويفرخ ، وقد ارتفعت اللجم عن الأشداق ، ونفخ فى بطونهم بالملق ، وصغرت فى أعينهم القيم والمبادىء، وقرت فى نفوسهم أنها كلها « سبك صناعة » و « تزجية بضاعة » ؟ .

هذا الطراز المسكين الذى خال نفسه مصدر السلطات ، والذى تضافرت الظروف على تشويه فهمه وتسفيه حلمه ، هو الذى يسخطه ولا مراء أن يرى الإخلاص والجد والاستقامة تنجح

وتثمر ، ولا تحتاج إلى معوان من ثقته الغالية أو سند من تأييده تدفع له فى سبيلهما الأجور، ويرفع إليه القربان ويحرق البخور . .

أيمكن أ ان تسير لأمور ولا رأى لنا ؟

أيمكن أن تدبر المعضلات وتعالج بغير تدبيرنا ؟

إمكاننا إذآهو المدرسة. وعملنا هو الطاعة والتنفيذ فى صمت؟

إلى هنا ويفتح الله . . . !

إلى هنا وتضيع قضية الإستقلال .ويضيع السودان . ويكف النيل عن الجريان .

إلى هنا ولا يصلح النقراشى لولاية حكم أوتدبير رأى .

الى هنا ويحيا الاضراب أيها الطلاب . ولتقذف المتاجر بالحجاره . ولتقلب عربات الترام وتضرم فيها النيران .

واخربها يا ولد نكاية فى النقراشى !

مسكين النقراشى ..

بل مساكين هؤلاء ..

ومسكينه مصر ان كانت كل عدتها هؤلاء المساكين ..

نقيق مفهوم

هؤلاء المساكين الذين يضيقون بأنفسهم عن الصلاح والإستقامة ، ويلوون اعناقهم عن الجد ، لاينقصهم لهذا الذى تملى لهم نفوسهم فيه من الشر إلا أن ينخسهم ناخس ، ويلقنهم الأراجيف والخزعبلات حاقد أو ناقم ، فهم أبواق كل ناعب ، ومطايا كل راكب ، ماشمر الى الفساد وأوضع فى الفتنة

ولا يعدم هؤلاء المطايا راكبا على هذا الغرار ، فما اكثر المنتفعين من حرام تؤودهم الاستقامة ونزاهة الحكم ، وتكاد تخرج عيونهم من الحرد إذ يرون أموال الدولة مصونة ، وأقوات الناس بمنجاة من أيديهم . فما اسرع ماغاض الماء الآسن من المستنقع . وتجمعت فى قعره الضفادع تكاد تزهق انفاسها تنق نقيق البهتان ناعية على الطغيان ، والتفريط فى القناة والسودان . أو شاكية من قصر اللسان .

وهو كله نقيق مفهوم ، مفهوم البواعث والأهداف .

وهى كلها دموع تماسيح لاتخدع إلا ضالعا راغبا فى الانخداع . لأن له هوى فى مجانبة العقل وانكار ضوء النهار .

فقد ولى النقراشى هذا الأمر ، فوقف على كل مظنة خلل أو فساد فى إدارة الحكم فحاسب الممولين والشركات ليستصفى كل درهم من حق بيت المال ، فغضب هؤلاء وأسروها

وراقب التموين حتى وصل النصيب المقسوم الى كل طفل فى خيمة ضاربة فى الصحراء ، فاختفت السوق السوداء فى أقوات الناس ، فأحفظ ذلك تجار تلك السوق الظاهرين ووراء كل واحد منهم عشرة غير ظاهرين ، كانوا يقاسمونه ربحه الحرام

واشتد التدقيق على التسعير فى كل صنف مستورد ، فضاقت أنفاس من تعودوا التحيف فى البيع والشراء حتى جمعوا الثروات الضخام ، فما اخلقهم بالحنق الشديد على هذا الحاكم الأمين

وقطع دابر التلاعب فى أذون الإصدار والاستيراد ، فانتهى عهد الطفيليات فى هذا الميدان ، ولطالما جمعت من فساد الذمة الأموال بغير حساب

وأقفلت الأبواب فى وجه الوساطات ، فحنق تجارها ، وحنق زبائنهم ، لأنهم كانوا يضمنون - لقاء جعل معلوم —

قضاء المرغوب ، على حساب المستحقين الذين لاسند لهم ولاوسيط .

وأما من تعودوا الأكل على كل مائدة ، يستقبلون فى كل مكان بالترحاب ، ليكونوا ألسنة حمد ، أو ليكفوا ألسنتهم عن الثلب والنقد ، فما أضيقهم بهذا الرجل الذى يرعى الله ولا يرعى الناس ، والذى يستنكف أن يشترى شهادة الزور ، أو يتق بالمال غائلة التشهير

هذه هى الضفادع التى كانت تنق فى المستنقع الخاوى إشفاقاً من موت أطبق عليها بالحق .

ولكن هل تصرح الضفدعة من هؤلاء بالسر فى حقدها على النقراشى ؟!

معـــاذ الله . .

وإنما يترجم هذا كله فى نقيقهم بهذه الأراجيف التى منها :

« النقراشى جاهل بالاقتصاد » . . ويعنون بحسن الدراية بالاقتصاد تركهم يتلاعبون بالأصداء « الاستيراد » أو يتهربون من أداء ضريبة الإيراد !

أو يقولون : « بل هو ليس سياسياً » .. ويعنون بالسياسة مبدأ « شيلنى واشيلك » .. وأنه لا يرضى الأنصار ، ولا يشترى الخصوم ، ولا يقبل عضوية الشركات ، ولا يغض الطرف عن المناورات فى المصافق والتعهدات والمناقصات !

أو يقولون : « أنه طاغية يصادر الحريات » .. ويعنون بالحرية حرية أيديهم فى العبث بالأقوات والسلع !

أو يزعمون : « أنه صامت بغير لسان » .. وقد علموا أنه ما من رئيس وزارة فى العالم قاطبة يبعثر الكلام فى كل آن وكل مكان ، وإنما الكلام مطلوب من أصحاب الأقلام .. وإلا فما صناعة هؤلاء إذا كان الكلام صناعة الوزراء ؟!

فإذا نفدت كلها ولم تجد ، واشتدت على أعناقهم قبضة الحكم النظيف صاحوا من شدة الألم :

« السودان ياعالم .. ضاع السودان .. الجلاء أيها الناس .. أين الجلاء ؟! المفاوضة أيها الناس .. الحقوها قبل فوات الأوان !... »

أما الفاهمون فيسكتون . لأنهم يفهمون معنى هذا النقيق المحموم . وأما الهلافيت المساكين أبواق كل ناعب ، ومطايا كل

راكب ، فينـــدفعون بحرارة الشر والمسخ ، وبحرارة الثمن المقبوض ..!

يتصايحون بهذا الثغاء الممجوج .. ولست تدرى أى عقل صور لكل حلس من هؤلاء أن هناك من يصدقه إذا زعم أنه أشد وطنية من النقراشى . . بله أنه يحمى القضية من عدوانه وتفريطه .. ولكن المسألة ليست مسألة عقل وتصديق . فهى من أولها إلى آخرها « حرقة » مفهومة من هـذا الساهر على حقوق الأمة وأموالها ، يحميها من عبث « الوطنيين المتطرفين » من رجال الشركات ، ومصـــاصى الدماء الذين امتدت أموالهم بعد أقوات الأحياء إلى أكفان الموتى ، يتاجرون فيها فى السوق السوداء أيام الوباء الذى اجتـــاح الصعيد .. ويلوذ بهؤلاء وأولئك برادع الإنجليز وسمـــاسرتهم ، وبلطجية الرأى من كل جنس وسنخ ..

نقيق مفهوم ..

و « حرقة » مفهومة ..

و « حرارة » لا تنطلى على أحد ..!

يزيدية هذه الأمة

اليزيدية فئة تعبد الشيطان لأنه ذو قدرة على الشر . أما الله فلا تعبده لأنه الرحيم الواهب المأمون الجانب .

ويزيدية مصر الحديثة فئة رأت حقها مضمونا عند العادل النزيه . سواء ناصرته أو ناصبته العداء . فاستوى عليها تأييده والتخلى عنه .

حاشا . بل رأت أعداءه ذوى بأس إذا حكموا رفعوا ووضعوا . فمالت اليهم كسبا لرضاهم وكفا لأذاهم ، فضمنت بذلك البر والفاسق . وما وزعها انها تنصر الخائن بمجرد التخلى عن نصرة الأمين الصادق .

وهكذا رأينا فئة تدرك فضل النقراشى ولكن المنفعة توقد لهم نارا يعبدون فى وهجها الشيطان ، فيظاهرون خصومه ليضمنوا الجنتين ويأكلوا على الجانبين .

كانت القاضية

وأنك لتلمس العناية فى تدبير أمور الكنانة . أن يظهر النقراشى باشا على مسرح حياتها العامة فى هذا الطور . لأكثر من سبب واحد يكفى كل منها لابراز الحاجة إلى رجل من طرازه فى هذا الأوان .

فان الأمة التى طال بها عهد الخضوع للسيادة الأجنبية حتى فقدت معنى الاستقلال أو كادت ، وطال بها عهد الخضوع للاستبداد فى نظمها الداخلية حتى فقدت معنى الكرامة والحرية الفردية أو كادت ، حرية فى أول عهدها بالاستقلال أن تضطرب فى يدها أزمة الأمور ، وأن تختلط فى رأسها مقاييسها أما زهوا بالثوب الجديد الفضفاض أو جهلا بحدود الحقوق وما يترتب عليها من تبعات . وكما يساء الفهم يسوء الانقياد للمظاهر والطبوليات . فيخشى لهذا أن تصير الديموقراطية إلى

حكم الطغام أو من يركبون أكتاف العامة بالمهارج والأباطيل فيصير الأمر كله نزاعا بين طوائف المنتفعين من ولاية الحكم..

وماظنك بمن يرث مالاوهو فى غرارة الصبافقليلامايحسن تدبيره وإنما هو يسيء الحرية . إذ يسيء المسئولية عن نفسه وما تملك يمينه حتى يشقى على الخراب وتركبه الديون حتى يذل. وكذلك الأمم فى ذلك الطور الأخير .. حتى إذا تنكبت الطريق السوى صور لها الجهل أن الخطأ خطأ النظام لاخطؤها فى تطبيقه، فتكفر بالديموقراطية وتفقد الثقة بنظامها . وقد تنزل راضية عن حريتها الشخصية لطاغية يمنيها باستتباب النظام وتأمين الأرزاق .. أو يستغل أصحاب المبادىء الهدامة فرصة هذا القلق فيقلبون النظام ويقيمون حكمهم الممقوت ... وبذلك يكون الكفران بالديموقراطية مشفيا على واحد من نقيضهم كلاهما شر مستطير : الفاشية أو الشيوعية .

فالخطر أكبر الخطر على الحرية أوالنظم الديموقراطية إنما ينفذ إليها من منفذ واحد لاخلاف عليه : هو فقدان الثقة به لفقدان الثقة بالقائمين عليه .

ولا تفقد هذه الثقة بشيء مطلقا كما تفقد من جراء خطة « المنفعة » التى يجرى عليها الزعماء وتجرى عليها الأحزاب . إذ يجدون المنافع ويسخرون الدولة لقضاء مصالحهم ويركبون الحكم مطية إلى لباقاتهم الشخصية .

ولا يكفل الثقة ويحميها من التزعزع كما تكفلها « شريعة الواجب » لأن تلك الشريعة تسوى بين الخصم والصديق وتجعل « مصالح الجماعة » أساس الحكم شكلا وموضوعا ، وبهذا تنتهى شريعة الواجب إلى منفعة دائمة شاملة . فى حين تنقلب خطة المنفعة الضيقة العاجلة فتقضى على أصحابها بل وتقضى على النظام الذى مسخوه ودنسوه ، فتعقب هذه السياسة كارثة قومية لا محيص عنها إلا بلطف الله .

وقد كان النقراشى لطف الله أدرك الكناية فى ابان هذا البلاء ، فجاها من كارثة تأتى على الأخضر واليابس .

قاهر التنين

كان تنين كاسر يعيش فى مورد الماء ، يمنع أهل القرية أن يردوه ، فخرج اليه فارس شجاع فارداه .

وما كانت الحرية الشخصية أهون على من يستحقونها ويعرفون قدرها من مورد الماء يمنعونه . وما كان التصدى للغول الذى أهدرها أقل خطراً من التصدى للتنين .

ولكن رد الحرية الى أصحابها واقرار الأمور فى نصابها لا يساوى عند ضفادع المستنقع الآسن منفعة فاتتهم ورزقا حراما حرموه . فأطلقوا المأجورين والاوشاب يعطلون الدروس ، ويؤذون الطلاب المقبلين عليها ، ويصدون الاساتذة عن التعليم بكل وسيلة ، مستخدمين الحرية المكفولة فى تحريك نوازع الشر وإشعال ألسنة الفتنة .

وليس التنين الذى يفترس الحرية الشخصية بأخطر من شيطان الفتنة الذى يسىء تسخير تلك الحرية فى العبث بالنظام

وتعكير الامن ، وتعطيل ركب الاصلاح .. وما كان واجب الحكومة العادلة فى صون الامن واقرار الطمأنينة وصيانة العاكفين على العمل والعلم بأقل من واجبها فى كفالة الحرية الشخصية وصيانتها بل هذان شىء واحد ، والا كان معنى الحرية انها حرية العابثين فى تعطيل العلم وتعكير الامن والخيلولة بين الحكومة والفراغ لمهامها الجلى فى الداخل والخارج .. وكان معناها كذلك تمكين هؤلاء العابثين من سلب حرية الجادين فى الاقبال على العلوم والأعمال .

فهم للحرية عجيب .

حرية متاحة لكل انسان أن يعبث بحرية أهل الجد والعلم، فكل انسان حر فى هذا الفهم الملتوى الا العالم الجاد أو العامل المجد ، فهو ليس حراً فى الإقبال على علمه أو عمـــله وكذلك الحكومة ليست حرة فى الدفاع عن الامن الموكول اليها وعن حرية العاملين المجدين .

وخرج المطايا والابراق مدفوعين بحرارة الغرور الغث وحرارة الثمن المدفوع والثمن الموعود معا . ليعتدوا على الحرية والامن . فوقفت لهم الحكومة فى الطريق لانها تعرف واجبها فى صون الحرية والامن .

فيا ويل الحكومة اذن . فهى تعتدى على الحرية وتصادرها فاقبلوا ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور يقذفون الشرطة بالحجارة . كأن هؤلاء الضباط والجنود الى غير مصريتسبون حتى بلغوا قنطرة عباس ولم يبق منهم وبين شوارع القاهرة الا اجتيازها .

ومصر تزعم فى ذلك الحين انها أهل للحرية والاستقلال وان الأجنبي أمنه مكفول فيها . وان النظام مستتب . ولا حجة للانجليز فى بقاء الاحتلال بحال من الأحوال .

وقذفة حجر واحد على بيت تجارة أجنبي كل ما كان ينتظره الرابض فى قصر الدوبارة ليهدر ويزمجر . ويتوعد وينذر ولعل دباباته كانت معه فى الانتظار . اذن لعاد التنين إلى مستقره فى عين الماء ، ولخلص الأمر لمصاصى الدماء ، ولهدأت دماء فارت فى عروق المغرورين والاجراء ، وعلى مصر وحريتها العفاء .

كل ذلك لم يكن دونه الا اجتياز قنطرة ، فماذا يصنع حاكم يقدر واجبه ويعرف خطره ؟ هل يتركهم يمرون ، أو يمنعهم وليكن بعد ذلك مايكون ، فكل خطير فى جانب درء هذه العواقب يصغر ويهون ؟

ان الذى صرع التنين . قمين أن يصنعه فى الأخرى كما أراده فى الأولى . وهيهات ان تخدعه عن واجبه حشرجات تطلقها حناجر هؤلاء الهلافيت .

ولكن الفارس أب رحيم ، رحيم حتى لمن لايستحقون الرحمة ، وبمن لعل الرحمة بأمهم مصر ألا تدركه فيهم رحمة .

كان أمامه يومئذ أن يحصدهم بالرصاص ، وذلك فى شرعة الحق مباح . لان امن الدولة وسلامتها مقدمان على كل اعتبار ولانه لاحق قبل سلطان الدولة للخارجين عليه .

كان أمامه ذلك ولا جناح عليه فيه .. ولكنه لم يفعل بل اختار الخطة الاخرى التى تفوت عليهم غايتهم وتحفظ عليهم حياتهم ، لعلها تستقيم يوما على صراط مستقيم ، فامر بفتح القنطرة .

وهكذا انتهى كيدهم إلى حبوط .

ولكن هل يسكت التنين وفيه بقية من رمق ، وله لسان يقذف باللهب والحميم ؟

معاذ الله . . بل معاذ التنين .

ليطلقها فرية لاتدخل فى عقل خنفساء ، ولا تسيغها حشرة ولا حيوان ، فضلا عن خلائق بنى الانسان .

« فتح القنطرة .. قنطرة عباس »

وماذا فى فتح قنطرة ؟ ألا يملك رئيس الحكومة أن يفتح قنطرة ليصون النظام ؟

« ولكنها الجناية على الأرواح والأجساد التى لاتلحق بهاجناية ... »

وكيف وعافاك الله ؟

ألا تدرى كيف . فتح القنطرة ، هكذا — على سهوة — فسقط فى النيل عشرات الشبان . وغرق من المساكين فى ساعة من الزمان . خمسون . بل مائة . بل مئتان ، وأصبحوا طعاما للحيتان .

ياحول الله ...

وأستنجد بحول الله لكم . لا لعرسان النيل الجدد ، فهم كعروس النيل القديمة خرافة بغير سند ، وفريةلايعقلها أحد، فما كان النيل فى القديم لتزف اليه عروس من البشر ، بل عروس من طين ، رمز زواجه من الارض وانجابه منها الزرع والخير العميم . بلى إن مصر لم تعرف فى تاريخها القديم كله معنى الضحايا البشرية ، وكذلك العرسان الجدد لا وجود لهم إلا فى الخرافة والوهم ، فكل من شهد فى حياته قنطرة تفتح يعلم انها تفتح من وسطها فى بطء شديد يسمح لكل من يقف عليها بالعبور الى هذا

الجانب أو ذاك . واذا لم يعبر بقى على جزء القنطرة المفتوح . فلا يمكن بحال أن يتسبب فتح القنطرة فى سقوط إبرة فى النيل فضلا عن عشرات الآدميين !

ويتحرك لسان أبكم فيقول :

— بل دفعهم الشرطة دفعا .

سبحان الله ! وكيف لم يجذب واحد من هؤلاء المدفوعين شرطياً من دافعيه معه إلى القاع ؟ ثم لماذا يدفعهم الشرطة إلى النيل ؟ ! إن كان الغرض هو التنكيل والتقتيل ، فقد كان الرصاص أوفى بالمراد من هذه الوسيلة المشكوك فى وفائها بالغاية كما فعل رئيس وزارة ـ لاحق ـ بعد ذلك بأيام فى ميادين الاسكندرية ، وأجزل للجنود المكافأة والعطاء جزاء لهم على بذل الهمة وحسن البلاء . . ولم يفتح فم واحد فى حقه بالملام والعتاب ، فضلا عن الافتراء والسباب !

ثم ما القول فى تحدى رئيس الوزراء تحت قبة البرلمان أن يذكر اسم غريق واحد فى حادث القنطرة المزعوم . . فكان الصمت هو كل ما تلقاه من جواب . . ولو كان ثمة واحد من هؤلاء لذكروا اسمه وطنطنوا بالشهيد أيما طنطنة وأطنبوا فى مناقبه أيما اطناب !

وهذه هى خرافة « عرسان النيل » فى العصر الحديث . لانصيب لها من الحقيقة أكبر من نصيب أختها « عروس النيل » فى العصر القديم .

ومسكين والله هذا النيل . . فقد حملوه من الأكاذيب ما يكفى لتسميم مائه السلسبيل . وتزهيده فى الوفاء لهؤلاء الأفاكين . . ولكنه يعلم أن كيدهم فى تضليل ، وأنه لا يلحق الشرفاء من كيدهم كثير ولاقليل!

وهذه هى « قنطرة عباس » الأسطورة التى تزهق الأنفاس بما تنوء به من الأرجاف والأرجاس، وإن هى إلا هالة من نور تتوج هامة النقراشى الصادق الأمين ، الذى أردى التنين مرتين : مرة حين رفع الحجر عن الحرية الشخصية فكفلها ؛ ومرة أخرى على « قنطرة عباس » حين صان تلك الحرية من العبث ، وصان سمعة مصر من التلويث ، وصان الاستقلال من أمحولة للمتربصين به . . وصان كذلك أرواحاً لم يكن من حقها أن تصان ، بما تكيد لوطنها وتعرضه لأوخم النوازل وأفدح الخسران . . !

مُعَفِّرُ اللَّيْثِ

أما وقد فرغت مصر من أمر التنين الذى كتم الأنفاس وخنق الحريات الشخصية فى داخلها . فقد بقى أن تنظر فى أمر الأسد الرابض يجرح سيادتها وينتقص من استقلالها ويفصل بين مصر وسودانها .

وكل منطق فى الوجـــود يقول أن التفاهم مع الأعداء واستخلاص الحقوق منهم لا يكون إلا بطريقتين لا ثالث لهما : أما العنف والمغالبة بالقوة القاهرة ، وأما التفاهم الذى تسوده الرغبة المشتركة فى رعاية المصالح من الجانبين .

وغنى عن البيان أن مصر لم تكن تملك حرب الانجليز .. فلم يبق إلا التفاهم. يعنى المفاوضة. فاذا لم تفلح لم تبق إلا مجافاتهم وعرقلة مصالحهم ما كانت لهم بيدنا مصالح ، ومعاداتهم أمام العالم فى المجتمعات الدولية ، والتضامن مع من يعانون منهم مثل

مانعانى. فنحن فى عصر تقرير المصير، وفى عصر تشابك المصالح بين أقطار العالم البعيدة تشابك الأعضـــاء فى البنية الواحدة. فلا مفر لبريطانيا عن الاحساس بوطأة تلك الخطة ، والرجوع إلى ماهو أقرب إلى الحق والانصاف .

هذا هو الرأى كله فى الموضوع . ولـكن العجب العجاب فى هذا الباب أن تسمع هراء مخلوق منتفخ الأوداج يهز رأسه ويسألك سؤال المتعالم :

ـــ ولمـاذا لانحارب انجلترا ؟ ولمـاذا لانهددها بالتحالف مع اعدائها إذا جاءت الحرب ؟

والمفروض عند السائل الجهبذ أن انجلترا إذا هددت هذا التهديد ركعت لنا وسلمت بالمطلوب ، مطمئنة إلينا بعد هذا فى رعاية مصالحها إذا اندلعت الحرب .. ولم تجعل همها التشبث بهذا المكان الذى لا أمان لأهله وهم يصرحون بنياتهم ضدها منذ الآن .

أو يقول لك جهبذ آخر .

ـــ وروسيا . لمـاذا لانستعينها على الانجليز ؟.

ولا يخطر بباله أن يسأل نفسه أبسط سؤال فى الامكان.

— وهل ستجد روسيا أرفق بك وأهون خطرا من انجلترا؟ أم هو التداوى من الزكام بالسرطان ؟..

كلا . أنه لا يكلف نفسه هذا السؤال. ولا غيره من الأسئلة فحسبه أن ينتقد وأن يضع ساقا على ساق . ويدبر على افريز المقهى أمور الحرب والسلام ، ويحل المعضلات الجسام التى التى حارت فيها كبار الأحلام .

أليس « جدعا » ..

بلى، ولكنها قلة البخت.. وسوء نظام هذا الكون الذى يطمر العبقريات فى التراب .. ويرتفع بالعاطلين من الفطنة إلى أوج السحاب . . !

هذا طراز من « حلالى القضية » و « ساسة المقاهى ». وثم طراز آخر ليس أهون من هذا خطبا وأقل عجباً . هو طراز الوطنيين المتطرفين كما يدعون أنفسهم .

وآية الوطنية المتطرفة أن تقول لا فى كل شىء . فلو جعلت آلة ذات لولب تقول لا فى أعقاب كل عمل وكل اقتراح لكانت مثل الوطنية المتطرفة الاعلى فى اخلاد هؤلاء النبهاء ..

فقد رأينا خطة الحرب لا تغنى . فلم تبق الا خطة المفاوضة

ألمفاوضة تقول ؟.. وتصرح بها فى غير حياء ؟

نعم . هى المفاوضة ، أحرام هى ؟ أهى ميتة أو لحم خنزير أو ما ذبح على الانصاب ، أو أهل به لغير الله . أم هى نطيحة ونحن لا نعلم ؟ .

والمتطرف منهم لو تنازع وجار له قوى على قيراط من الارض ، للجأ إلى التفـــاهم . ولما مل المفاوضة مرة وعشر مرات وعشرين مرة . ولما أجاز لنفسه أن ينكص عن المفاوضة كلما أبدى الخصم رغبة فيها لفض النزاع .

ولـكنها حرام حين يتصل الأمر باستقلال البلاد وتحقيق الاتحاد .

ويقول الجهبذ من هؤلاء :

— ولـكن المفاوضة قد تنتهى بالحصول على ما هو أقل من الحق المطلوب .

وماذا فى ذلك ؟

أنت مع عدو لا ضمان لحقك عنـده على الاطلاق . فاذا أخذت منه هذه المرة جزءاً من حقك ولم يقطع عليك الطريق

فى الحصول على بقيته فى فرصة أخرى . فكيف تجيز لنفسك أن تقول له :

ـ يفتح الله . احتفظ بحق كله مادمت لاتعطينى إياه كله ..

هذا كلام حالم يحسب أن حقه فى يده مائه فى المائه . فكل نقص عن هـــذه النسبة خسارة ، فى حين أن الواقع هو أن ما بيدنا صفر فى المائة . فكل ما حصلنا عليه كسب . والزمن كفيل بتحقيق البقية ، ونحن أقدر بما نكسبه الآن على المطاولة والمطالبة فى مستقبل الزمان ..

وعلم الله أننا ما غنمنا من خير فى هذه السنوات الثلاثين بالحرب ، ولكن بالمفاوضة والتفاهم .

ولكن المفاوضه حرام والسلام . . .

وقد فاوض النقراشى فلم يرض بأقل من الجلاء والوحدة . فلما أيس من المفاوضة اتجه إلى المجامع الدولية . وانتهج مع الانجليز خطة العداء السافر .

ويلوك جهبذ آخر هذا العتاب :

أما كان الأولى أن نوفر الوقت ، فنرفض المفاوضة من

بادىء الأمر . فها هى ذى فشلت وخسرنا الوقت فى غير طائل

والجواب اننا لم نخسر الوقت فى غير طائل ، فقد كسبنا اننا لم نترك بابا بغير طرق ، فيأخذنا الندم بعـــد ذلك ، ولعلكم تكونون أول اللائمين ان تركناه .

وكسبنا أن من نحتكم اليهم لن يظنوا بنا التعنت والعزوف عن التفاهم الودى ، وكسبنا كذلك انهم لا يحيلوننا إلى ماتركنا فنفاوض ساعتئذ راغمين بعد أن كانت المفـاوضة بطلب من الخصوم .

وثمة اعتبار آخر ، فالمفاوضة بعد فشلها فعلا لا خير فيهـا أما قبل ذلك الفشل فلا يجوز اطلاق هذا الحـكم . وشبيه من يقول غير هذا بمن يظل يقول كل يوم طيلة عشر سنين : مات فلان . وفلان حى يرزق . حتى إذا مات فلان هذا فى يومنـا هـذا قال لنا : ألم أقل لكم منذ عشر سنين أن فلانا اخترمه الحمام ، فماكان عليكم لو صدقتمونى من بداية الكلام ؟

كلا لا نصدقك أيها الهمام . ولا تؤاخذنا إذا لم نستطع قبول الملام . ولـكننا نوافقك ان العناد آفة من آفات الإفهام . .

وما شهدت مصر فى تاريخها كله نصاً رسمياً على ان مطالبها هى الجلاء التام ووحدة وادى النيل ، قبل أن يعلن النقراشى هذه المطالب قبيل المفاوضة وبعدها ، هنا وفى مجمع الأمم .

ولم تعرف انجلترا فى تاريخها كله سياسيا يصمها رسميا بالقرصنة على ملأ من ساسة العالم . وهى التى تعودت أن تسقط الوزارات وتقيمها باشارة .

أخذ قاهر التنين يعفر الليث ويدعك عرنينه فى الرغام فحاول الأسد أن يرد « عفرته إلى يافوخة » ليرهب مصر الناهضة . وعهده ان اهون زئيره كفيل أن تتخاذل له النواصى والرقاب .

ولكنها صفحة لن تبلى على الدهر من وطنية الفاروق وشجاعته المثلى حين أطلقها مدوية فتخاذلت لها ناصية الأسد، وتهاوت منه العفرة واللبد ، وانكمش فى ذله وكمد .

— انى على تمام الاستعداد لاستقبال الدبابات مرة أخرى .

فكانت بداية النهاية لسلطان الاستعمار . وعاد النقراشى يعدها مكللا بالغار ، وخفق قلب مصر كلها لابنها الباسل البر

المغوار . وانتهج فى الحكم خطة تجاهل الانجليز ، وهى الخطة الوحيدة التى تقضى على نفوذهم قضاء عمليا .

وما قيمة النفوذ إذا كان رئيس الحكومة يجاهر بعدائهم فلا يستطيعون اسقاطه ، ويجمع حوله فلكا من الدول التى تربطها ببريطانيا مصالح ومتاجر ، فيكيد لها فى كل مكان ويفوت عليها المنافع ـ من قبيل اتفاقية الطيران ـ فلا تستطيع الوصول إلى ماتريد لأن هذا الرجل الصلب العنيد يأخذ عليها منافذ السبل . وإذا مشروعات اسوان التى طالما حالوا دونها لانها تجعل من مصر دولة صناعية مستغنية عن مصنوعات انجلترا . وقد أخرج النقراشى هذه المشروعات إلى حيز الواقع الملموس. فلم تجد معه كافة الوسائل الكفيلة بالعرقلة والتخذيل . فتوسلت انجلترا آخر الأمر أن يكون تنفيذ المشروع من نصيبها على الاقل ، فكان الجواب طرح الصفقة فى مناقصة عالمية لاتفوز منها انجلترا بطائل .

وما هو النفوذ ؟ وعلى أى صورة يكون ؟ إذا كانت كل عمليه رابحة تحرم منها وكل مصلحة لها ترفض ، وكل امتياز كان لها من قبل يسلب ويسترد .

لأول مرة عرفت مصر معنى الاستقلال الكامل صدقا وحقا . فلم تعد للانجليز كلمة فى الداخل أو الخارج . وهى التى كانت تكفى منها الايماءة للقيام والقعود وكان رضاها غاية المسعى وقصارى المجهود .

كل هذا بجلد من ؟ ومثابرة من ؟ وذكاء من ؟

. . . كل هذا بفضل أبى هانىء ، مستظلا بعرش هو مضرب المثل فى تأييد الامناء الشجعان الشرفاء .

ولا علينا ان تنق ضفدعة أو ضفدعتان ، وان تنهق مطية أو مطيتان ، تصعر الخد وتهز الآذان ، وتسأل سؤال الحصيفة الرزان :

ـ ماذا صنع النقراشى بقضية الاستقلال ؟ وما موقفنا الآن من الانجليز ؟

كأن الاستقلال عتق لايكون الا « بصك اعتاق » ، أو تسريح لايكون الا « بوثيقة طلاق » ، يسوغ بها طلب النفقة ومؤخر الصداق . . . .

صنع ياهؤلاء أنه يشعر الانجليز أنهم الخاسرون ، وأنهم هم الذين يجب أن يتراجعوا عن موقفهم وينزلوا عن تعنتهم ليكسبوا ودنا ان شاؤوا .

ومن عجب أن محرمى المفاوضـــة فى أول الزمان بدأوا يقلقون لركود القضية — فيما زعموا — لأنها لم تحل فى شهر أو شهرين ، وأخذوا يطالبون بتحريك الموضوع . كأنهم يجهلون أن الطالب غارم فى شرعة التجارة وشرعة السياسة على السواء وهم لايجهلون هذا . ولكن ماالعمل فى «الدودة» التى تأكل قلوبهم حسداً من نجاح النقراشى إلى أقصى حدود النجاح المفروضة فى مثل هذه الظروف . وإنه لنجاح الحصيف الفطن . فهو لم يلجأ إلى الرخيص الأحمق من الوسائل فى حرب الإنجليز : فلم يهدد مثلا — كما اقترح بعض الأذكياء — بمناهضة قضية الديموقراطية أو التنكر لها ، بل أكد مناصرة مصر إياها . لأن قضية الديموقراطية قضيتنا نحن أيضا وليست — كما يخال هؤلاء الأذكياء — «ملكية خصوصية» للإنجليز . . فإذا نصرناها فأنفسنا ننصر . وإذا دافعنا عنها فعن عقيدنا ندفع . وأنفسنا نكرم بالوقوف حيث يليق بنا أن نقف بين أنصار الحرية وأعدائها ...

بهذا عرف الإنجليز أننا لسنا شعبا يجهل معنى الحرية ، بل نحن أحراراً فطرة وايمانا . وهذا أدعى إلى احترامنا والركون إلى رأينا وتقدير صداقتنا حق التقدير . أما المماحكة والتلويح

بمناهضة قضية الديموقراطية فتسىء إلينا لاإليهم ، لأنها اعتراف صريح بأن الحرية ليست من سجايانا ، وانهاهينة علينا ، فماأشبه ذلك بالقول بأنها لا تلزم لنا ، واننا لا نستحقها .

ولكن السياسة عند هؤلاء لا تقوم على المزايا النفسية ومبادىء الأخلاق ، وما الحرية إلا مزية نفسية وسجية خلقية قبل أن تكون لفظا يتشدق به أهل اللماضة ، وسماسرة الأسواق

رحم الله أبا هانىء .

فقد عرف كيف يعفر الليث دون أن يتمرغ فى التراب ، وان هذا عند شانئيه لهو العاب اكبر العاب ، فلئن أحفظهم نجاحه مره ، فان النبالة والكرامة اللتين ركبتا فى طبعه تحفظهم عليه مرات ...

وما أكثر ما أحفظهم عليه فلم يترفق ...

وما أبعدهم مع أبى هانىء عن الراحة بشانئة تشينه فى صداقة أو عداء ...

ظل وماء

يندر أن يصلح الفرسان للصدام والسلام فى آن واحد . ولكن « قاهر التنين » و« معفر الليث » كان باقعة فى الاقتصاد ونطاسيا فى علاج أدواء المجتمع ، ورائداً فى سياسة الإصلاح لايشق له غبار .

وانه ليحارب فى الجبهتين ، ويقاوم الأحابيل والألاعيب، ضرب بعضها فى مصر ، وضرب بعضها الآخر فى غير مصر . وله العذر لو استفرغ هذا جهده . ولكن جهده كان كأنه لا يفرغ ، وباعه لايقصر دون شىء .

تناوش والانجليز . ثم حلت ساعة الاتفاق على الأرصدة ونصيب مصر من العملة الصعبة فتصايح أقوام وتناوحوا .

— ما للنقراشى والاقتصاد . تلك مسألة ليس لها معلم ، وانما لها رجل مال .

وكانت مصر قد جربت طراز « رجال المال » و « عباقرة الاقتصاد » مطلق الحكم السنوات الطوال . فما زادت الأزمة إلا استحكاما حتى كادت أرواح الناس تزهق . واذا بالنقراشى يحول جولة وأخرى ، وتنجلى الغمرة عن ربح لمصر لم يكن يحلم به اكبر المتفائلين .

ولم يطبل الرجـــل على عادته لانه لايعمل انتظار شكر أو أجر .

ولكن إذا كان هو لايرجو شكراً ، فليس ذلك بمعف من الشكر قوما يقدرون الجميل ولا يجحدون الفضل .

وبدأت الحالة الاقتصادية تنتعش لانضباط الأسعار ومراقبة الأسواق ، حتى ملأت البضائع المتاجر وأصبحت أقرب منالا .

ثم جاءت مسألة القطن . فقد أحنق الانجليز أن تعاديهم مصر . فحالوا — وهم اكبر شراة القطن المصرى — انهم لو أعلنوا عزوفهم عن شرائه بار وهوى سعره الى الحضيض . وذلك حساب صحيح ، لولا أن أبا هانىء كان لهم بالمرصاد : ففى « صمت » وكياسة عقدت صفقات القطن مع الدول الأخرى

فقفز سعره حتى تجاوز العشرين جنيها فى بضعة أسابيع . وكان المفروض أن الطلب إذا قل من جانب ، تدلل بقيـة الطالبين . وخرجنا من القطن بصفقة الغبين .

ومرة أخرى فتح النقراشى بذكائه وحسن بلائه كثيرا من البيوت . وناهيك بأهمية القطن فى حياتنا الاقتصادية ... ولم ينتظر الشكر من أحد على ما أداه حسبة لمصر والمصريين

وألقى النظر فألفى الفلاح والعـامل فى حاجة أكبر الحاجة إلى رفع مستواهما فى الحياة : علمياً وصحياً ومادياً ؛ فوطن النفس أن تكون سياسته فى الحكم سياسة اشتراكية ، حتى تتضامن طوائف الأمـة وتتواصل ، ولا تنقطع أسباب الرحم بين الأخوة الذين يرضعون من ثدى واحد .. هو ثدى مصر !

فإذا الوحدات الصحية تنشـأ فى كل مكان ، والمدارس الابتدائية تفتتح بالمئات فى كل عام ـ وبالمجان ـ وإذا المدارس الثانوية والجامعة لا تصد طالباً ـ لعجزه عن أداء المصروفات ـ عن الامتحان .. وأقام مساكن العمال . . وشرع يمهد لتزويد القرى بالماء النقى والكهرباء ..

ولم يكفه هذا ، ولو وقف عنده ، لكان فوق ما يطلب من

رجل تكاثرت عليه أعقد مشاكل مصر فى تاريخها كله فى وقت واحد .. ولكن همة النقراشى لم تكن تعرف الحدود فى خدمة مصر على شريعة الواجب !

فأعد التشريعات الاشتراكية الكبرى التى تتناول الأمر من كل طرف : سن النظام التصاعدى فى الضرائب ، وقرر ألا تباع أطيان الحكومة المستصلحة إلا للعفاة من الفلاحين ، بأثمان إسمية مقسطة على آجال طويلة ، لا تبلغ أن تكون إيجاراً لا ثمناً .. !

وبدأ بهذين الحجرين الأساسيين بناء الحكم الاشتراكى فى مصر ، بالشعب وللشعب !

وأدرك بثاقب نظره أن الموارد الراهنة لا تكفى لانهاض مصر ومواجهة أعباء الإصلاح .. والعدد يكثر .. ووجوه الرزق محدودة .. فليس إلا التصنيع على نطاق واسع ، واستغلال الثروات المطمورة فى رحاب الكنانة ، لتكون منها إلى جانب النيل شرايين للثراء والرخاء .

فأبرم العقود مع الكاشفين عن الذهب الأسود (البترول) وأخرج مشروعات توليد الكهرباء من أسوان إلى حيز الوجود

ومعها مشروعات استخراج الحديد ومستحضرات التسميد .

وما كان بالعجول ولا المرتجل .. وأضرب لهذا مثلا : أزمة السكر ، فقلة الإنتاج تحتم تقييد استعماله ، والناس من ذلك فى ضيق ، وإنما تحملوا القيود على مضض ؛ فأعد للأمر عدته فى هدوء ، بأن زاد مساحة القصب المزروع منذ سنتين ؛ فأثمرت هذه الزيادة ذاك العام زيادة كمية الإنتاج ، والافراج عن السكر أو ماهو فى حكم الافراج .

فإذا نعمت بهذا اليسر فى طعامك ـ وإنما ضربت لك مثلا لا أكثر ـ فاعلم أن هذا غرس « النقراشى » آتى أكله .. لا يشاركه أحد فضله ..!!

معجزة فلسطين

فلسطين بلد الأنبياء ، من لم يولد فيها فقد أسرى اليها ،فهى ارض المعجزات فى الزمن القـديم ... وارض الميعاد المرعوم لبنى اسرائيل فى هذا الزمان ...

ولـكنها — على يد النقراشى — عادت سيرتها الأولى ، ارض الخوارق والمعجزات ، كما كانت فى سالف الايام

اليها شق موسى البحر بعصـاه واغرق المصريين . وفيها ضرب المصريون صهيون فى الصميم . وهم لايحسبون مصر تقوى على عراك شديد حديث العـــدة ، أمام رجال أحسن تدريبهم ، وأعانتهم بهم شياطينهم الحمراء ... فاذا عصا مصر هذه المرة هى التى تلقف عصى اسرائيل جميعا ، وإذا مصر فى هذه المرة هى التى تبسط يدها فاذا هى بيضاء من غير سوء .

فقد تعاهد اليهود أن يزدردوا فلسطين لقمة سائغة — فيما

خيل اليهم — فان دول العرب حديثة العهد بالحرية ، ليست لها جيوش مدربة على القتال الحديث ولا لها العتاد الثقيل الذى بغيره لاتخاض معركة فى هذا الزمان ، فما أسهل المهمة ، وما أبرد اللقمة ...

وكانت مصر بين أمرين :

إما أن تلبي نداء العرب جميعا أن تشاركهم فى إنقاذ فلسطين وإما أن تنكص .

وليس الأمر أمر نجدة جار . وغيرة على حرمة ابن العم والخال ... وانما هو صميم الدفاع عن كيان مصر ذاتها . سمعتها ، وأرضها ، وكيانها ومجالها الحيوى . فان لاسرائيل أهدافا مرسومة : أن تمتد دولتهم من الفرات الى ليبيا . شاملة دلتا النيل ، فاذا استقر ملكها فى فلسطين بغير قتال ، وغير اعتراض من مصر ، فالى أين تتجه اطماعها غداً وقد نفخ النصر منها الاوداج ؟ أتراها تتجه الى الصحراء القفر عن يمين ، أم الى دلتا النيل عن يسار ؟

وإذا استقرت الدولة المنتصرة بلا حرب من جانبنا ولا إعتراض ، فهل تأمن أن يتهمنا سائر العرب بخيانة الامانة ، ولن

ينسى أن مصر كلما كانت تقوم وتقعد منادية بنصرة فلسطين، وسحق اليهود الملاعين، وتتهم الحكومة بالتباطىء فى إعلان الجهاد على أعداء الجنس والدين ... فلا بد أن الإتهام واجد صداه فى الرأى العام المصرى، فتكون فتنة فى داخل مصر، تظهر فيها حكومة مصر بمظهر الجبن والتقصير وتظهر سائر العرب بمظهر البطولة والاقدام، ويعلم اليهود أن حكومة مصر واثقة بالهزيمة حتى لتخاطر باغضاب الرأى العام اشفاقا من محاربتهم فيزيدون جرأة على جرأة، ونزيد نحن ذلة واستخذاء. وما ذل قوم إلا غزوا فى عقر دارهم ...

ولكن كيف العمل ولابد فى الحرب من سلاح وذخيرة؟ والسلاح محظور إصداره إلى المتحاربين، وإذا وجد اليهود من يحالف من أجل «عيونهم» أو «ذهبهم» ذلك القانون، فمن أين لنا نحن ما لهم من «عيون»؟!

وهنا تبرز «العصا» فى يد «موسى المصريين» فإذا السلاح والذخائر تتدفق على جيشنا كأنها تهبط من السماء، وإذا جيشنا نفسه ـ وكان مبلغ العلم به قبل شهور أنه قليل الغناء ـ وقد أضحى ليث غاب يفترس السباع .. وناهيك بالثعالب والذئاب!

وهكذا تمت .. معجزة فلسطين ..!

ويوم تتاح إزاحة الستار عما لتلك الحرب وملابساتها من أسرار ، سيعرف النـــاس أى ألمعية كانت لهذا الرجل الجبار ، وأى فضل فى رعاية الجوار ، وحمـــاية الذمار ، وتتويج جيش مصر بألوية الغار ؟!

ولقد نكص على أعقابه بعد ذلك من نكص ، وتقاعس عنها من قدح لها بكل زناد .. وعلم العرب والمصريون والدول أجمعون أن جيش مصر حمل وحده عبء القتال ... وأن من الأحلاف من كانوا عليه شراً من الأعداء : يمنعونه المـــاء ، ويمنعونه التقـــدم ، ويقيدون حريته ، ويشلون حركته ... وتخاذلوا للمهادنة ... فما كان لنـا أن نبذل دماءنا هدراً ، بعد هذا التثبيط ، والتفريط ... فأعلنت الهدنة ...

وتنادى دعاة الهزيمة يومئذ :

ـ « ماذا كسبنا من فلسطين ؟ ! »

كسبنا ياهؤلاء كل ما كان يمكننا أن نكسبه من تلك الحملة !

ويجب كيما يصح الحساب أن نخرج من الموضوع أصـــلا مسألة التوسع أو كسب أرض جديدة ، فمـــا كان هذا غرض

الحملة – كما أعلنا مراراً على رؤوس الأشهاد – وإنما كان غرضها أن ترد إلى العرب ديارهم المسلوبة منهم غصباً وغدراً .. فسواء انتهت الحملة بنصر حاسم وحققت جميع أغراضها ، أو انتهت إلى وفائنا بأقصى واجبنا ، فلا مأرب لنا فى أرض جديدة أو غرو يستفاد ..

فيبقى بعد هذا حساب المغارم والمغانم ، وهى مسألة احصاء لا يستطيع المكابرة فيها إلا ذو هوى فاضح .

كسبنا أن دولة إسرائيل لم تلتهم كل أرض فلسطين لقمة واحدة ، دون أن تصاب قواتها بوهن يذكر ، فتكون عليها بعد هذا التخاذل والخور شيئاً هيناً ، وتكون على الاجتراء لهذا الانتصار السهل وتلك القوة المصونة أجسر وأقدر !

وكسبنا فضلا عن كبت الأعداء ، انكشاف الظواهر من ولاء فريق من الأصدقاء عن مكنونهم ، فلا نكون فيما هو أخطر من هذه الأزمة مخدوعين بالمدخول من مودتهم ، أو موروطين بالمعسول من مقالتهم .. ولولا ذلك الانكشاف ماصدق أحد فى خارج مصر ، بل ولا صدق أحد من أفراد شعب مصر أن الواقع على هذا الوجه ... وكان المصريون قد

اندفعوا مع سلامة طويتهم فهللوا لهؤلاء الأصدقاء أو الاقرباء وهللوا ، حتى وجدنا نصف محـــال البدالة والجزارة والحلاقة تحمـــل اسم الوحدة العربية والجامعة العربية ، حماسة وفرط مودة ... فلو قيل لهم أن من هؤلاء من هم بخلاف مايبدو منهم لقامت القيامة ، وكنا الخاسرين بهذا ، ولـكن انكشاف النيات فى هذا الامر البعيد نوعاً ما عن مصائرنا، خير من الانخداع فيه إذا حان أمر تتعلق به كل مصائرنا ، كغزوة ذات بال فى حرب ضروس تأتى على الاخضر واليابس !

هذا هو حساب الجبهة .

أما الـكسب الداخلى ، فما أكبره وما أجل خطره ، لأن هـــذه الحملة كانت نقطة التحول فى نفسية الشعب المصرى واتجاهات حكمه ورأيه .

فان المصرى لطول عهده بالاحتلال، والفته لتدبير المستعمر لأحوال سياستنا فى السلم والقتال ، كان لايزال فى غير بينة من أمره ، فلا تزال فى نفسه وعلى لسانه إثارة من تلك الالفة وتوجس أن يكون الظاهر من أمر الاستقلال ستارا لألعوبة من ألاعيب الاحتلال ، حتى كانت هذه الازمة الفلسطينية .

وقد عرف كل مصرى ان الانجليز لايحبون لنا أن نخوض الحرب مدافعين أو غير مدافعين ، لأن هذا يخرج بسيفنا من قرابه ، ويذهب بصدئه ، ويجلوه للعالم أجمع ، ويخرج بنا من الاستكانة الى الاجتراء على المناوشة والاستهانة بالمناجزة والعداء وحجتهم أمام العالم اننا لانستطيع دفع عدو عن ديارنا ، وأنه لاجيش لنا يحسب له حساب أو يعول عليه فى غزو أو دفع عدو ، ومن مصلحتهم الا نتعود القتال ولا نجترىء عليه، لانهم عدونا المباشر وخصمنا الذى نطالبه بالتخلية بيننا وبين الحرية والعيش الكريم .

ولكن مصر أعلنت الحرب فى فلسطين ،وأرسلت جيشها إلى أرض الانبياء دون تلكؤ ، فقد وضح اذن لكل مصرى ولكل أجنبى ، ان حكومة مصر لاتستوحى فى سياستها منذ اليوم أحدا ، ولا أثر فى توجيه أمور حربنا وسلمنا للسادة الانجليز وغير السادة الانجليز

ولاول مرة منذ أجيال ، سمعت المصرى من سواد الناس يقول فى ثقة واعتداد :

— رأت حكومتنا كذا، وقررت حكومتنا كذا ، وستفعل مصر كذا ، وفعل جيشنا كذا وكيت .

ولتلك غنيمة يدق فى جانبها من الغنائم كل جليل ، وكل مايبذل فى سبيلها من الثمن زهيد ضئيل .

وثمت غير هذا الغنم بغنم آخر ينافسه فى الضخامة والقيمة فهذه السمعة الدولية التى كسبتها مصر دولة وجيشا ، فغدت مجامع الدول وصحفها تذكر اسم مصر ، باعتبارها عاملا فى مقدمة العوامل الفعالة فى مشكلة شغلت العالم أجمع ، إليها يتوجهون بالرجاء يبعثون بالوسطاء ... وصار لجيشها اسم مسموع وذكر مرفوع ، حتى لقددهش الناس من هذا الوليد الجديد ، ينفث النار ويلوى بالحديد ، ويلقى دروس الصراع على جيوش تمرس جنودها بالحروب فى ميادينها المستعمرة وتمدها الدول الضالعة معها بذوى الرأى والخبرة ، وبمدد لاينقطع من السلاح والذخيرة .

بل خير من هذا وقبله فى حساب المكاسب والمغانم ، ثقة مصر نفسها بجيشها ، فلا نصدق بعد فرية المستعمر أنه لاينبه للفلاحين جيش فى قتال ، ولا صبر لهم على مافى الحروب من أهوال ، فعرفت مصر أى قوة فى ابنائها كامنة يجب أن تستغل ، وأى مقدرة لديهم يجب أن تصقل ، وأنهم ذخر فى الشدة وموئل عند الكريهة وحين البأس .

لحرية مصر بعدذلك أن تبذل فى سخاء لتقوية هذاالجيش وتدعيمه ، فكل ماتبذله له راجع إليها ، لأنه زهرة ابنائهاومجنها فالتجنيد الإجبارى سيجعل الأمة هى الجيش والجيش هو الأمة ، فليس الجيش طبقة أو طائفة ، ولكنه مدرسة لأبناء الجيل أجمعين، وماأجملها فرصةلتعليم الأميينوعلاج الامراض المتوطنة ، وتعويد النظام ، وبث احترام الواجب والحرص عليه فى نفوس ابناء مصر أجمعين ...

بل أن جيشنا نفسه قد كسب من هذه الحرب خبرة عملية لاتقدر بثمن ، تنفعه حين يخوض الغمرات الكبار ، وهىغير مستبعدة فى هذه الأحوال ، وفى هذا الجوار ...

فمصر إذتمضى فى تقويةجيشها تمضى على هدى وبينة،وبقدم ثابتة وستكون لنا منه مدرسة اجتماعية ، ومؤسسات صناعية ونفر أى نفر ، وذخر فى المئات أى ذخر ...

تلك هى المغانم . فما هى المغارم ؟

لامغرم فى الجبهة ، فما تقهقر لنا جيش فى موقعة ، ولا خسرنا يوما من أيام اللقاء ، ولولا أفاعيل بعض الأصدقاء وأحكام السياسة لبلغنا الغاية ...

ولا يحسبن احد أن ماوصل إليه الجيش قليل ، فان هذا المثلث فى جنوب فلسطين من أصعب البقاع على المهاجم، ونظرة إلى حرب سنة ١٩١٤ ترينا كتشنر ـ وناهيك بألليني من قائد وبانجلترا من ذات عتاد ـ يقضى فى ذلك المثلث نفسه أكثر من من عام ، ويلاقى فيه الأهوال الشداد أمام فيالق العثمانيين القليلة العدة والعتاد ...

فلا يبقى إلا الضحايا من الشهداء ...

وهؤلاء خسارة لا شك فيهـــا ، ولكنهم كذلك كسب لا شك فيه .

لأن مبلغ الخسارة فيهم انهم أبطال يعز علينا فقدهم . وهم أبطال لأنهم أقدموا واستشهدوا . فما يغلى قيمتهم هو هو فقدانهم. فهم كسب لمصر بهذا الخسران. إذ هو الذى جعل لها رصيداً من الأبطال . وهم كسب لذويهم ، لأنهم مصدر فخر وعزة ، وقدرة ومثال ... وما أحرى أن يغبط على هذا المصير من

يخفون إلى الموت زهوا به ... كما يزدهى العاشق الموعد
فما مات من ينقضى الحاضرو ... ن وذكراه باقيـــة تسرد
وان من العيش ما يزدرى ... وان من الموت ما يحسد

وان المرء ليموت حتف أنفه فى فراشه أو تحت عجلات الترام أو من وطأة الزحام ، وانه ليموت جبانا أو قصاصا من جرم حرام . وطعم الموت فى هذه وتلك هو هو طعمه فى ساحة الوغى تحت جنح القتام ، ولكن ما أعظم الفارق بين حمام وحمام ...

وهل يطلب من الحرب أن تكون بغير قتلى ؟ أم يخال المتخيل المجد والنصر ان يؤوب الجيش من المعمعة وقد زاد عدده ولم ينقص ، وتوردت خدود الجنود من تبديل الهواء ؟

وان من يشتهى فخر الحرب وحلوجناها ، بغير ثمن يبذله من الاشاوس والابطال ، فهو اذن يطلب أن يكون ضحاياه من الرعاديد الانذال ، فيجعل على المستضعفين عماده ، ويضفى على من هم أولى بالخزى مجد الشهادة وهو قلب للاوضاع فى الحالين وخسارة من الجهتين .

فمن طلب المجد فى المعمعة لم يغله مهره ، ولم ينهض بندمه عذره ، ولا بكاء على شهيد كرمه من سواه فاصطفاه .

وما مثل من يطلب الفتح ويستبهظ الثمن ، إلا كمثل من يريد الجنة دون أن يحرم نفسه فى الدنيا من لذا ذات أهل النار.

ويقول لنفسه هل أدخل الجنة واتزوج العين ؟ هذا خير كثير ولكن التعفف عن النساء وكافة المحارم، والحرمان من الزخارف والمناعم ، شيء عسير .

نعم يا صاحبي ، هو عسير ، ولأنه عسير كان ثمن الرضوان العظيم ... وكذلك الاستشهاد وفقد النفائس من الاموال والاجناد مطلب عسير ، ولانه عسير فهو ثمن المجد والعزة !

فلا يقولن أحد خسرنا كذا وكيت ، فهو كلام جاهل بموضوع الكلام .

ونحمد الله أن ليس بيننا جهلة من هذا الطراز ...حرب أمتهم واعداء أنفسهم ودولتهم .

هذا هو كل حساب فلسطين . وهو حساب يدخل على مصر السرور . ولا يذكر إلا ذكر الرجل الذى تسلم الجيش حلما وأملا ، فجعله حقيقة جلى ، وجلاه لمصر وللدنيا فتنة وسحرا . فعل مالا يخطر على بال بشر ليزوده ويعده ، ويمده ... فكان هذا المولود لستة شهور ، أعجوبة الاعاجيب فى أرض المعجزات والخوارق . كأنه يد مصر بسطتها فاذا هى بيضاء

بغير سوء ؛ وكأنه عصى مصر ألقتها فلقفت عصى بنى اسرائيل، وسخرت بالمكائد والاحابيل، وكأنه طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ..

وهكذا ردت مصر بعد كل هذه القرون التحية لقوم موسى وهارون ، وقد بدل الله موضع الحق واليقين ، فأمدنا الله بروح من عنده لايخذل ولا يمين ، فكانت معجزة فلسطين ، وأنها لدين تدين به أول ماتدين ، للنقراشى الصادق الحاذق الصابر الأمين .

عقدة السودان

لم تعرف مصر تحديدا رسميا لأمانيها فى غاية من الوضوح والبيان قبل أن ينطلق لسان النقراشى بكلمته المشهوره : «الجلاء التام ووحدة وادى النيل» ومن أعجب الأعاجيب بعدها ـ وان كنا موطنا تقادم العهد على شهرته بالأعاجيب ـ أن تسمع جهبذا من أولئك الجهابيذ ! يسألك سؤال المنكر المستعيذ :

ـ ما فعل النقراش بالسودان ؟

ضيعه وحياة أبيك يا أخيه !

سلمته أنت السودان فى يده خالصا سليما معافى ، فاحتال هو حتى استقدم الانجليز من ديارهم البعيدة ، وبذل الجهد حتى أقنعهم بعد لأى أن يأخذوا منه السودان .

أليس كذلك يا أخا الكنانة ؟

انما يسأل عن السودان ياأخانا هذا السؤال الشديد ، من كان

السودان فى يده فأخرجة طوعا الى يد العدا . ولا يسأل هـذا السؤال من جاء الحكم والسودان فعلا فى يد الغاصب ، وما لك عليه من حكم غالب ، وانما هى الحيلة والكياسة ، فاذا خطا نحو الغاية خطوة فهى مكسب مشكور ، وسعى مبرور .. اما أن يكون قد ضيع السودان لأنه لم يجيش الجيوش ، ولم يقـذف الانجليز بالقنابل الذرية والصواريخ الجوية حتى يسلموا صاغرين فكلام أيسر ما يقال فيه أنه « أضغاث أحلام » .

أما « الصاحى » الذى لا يحـلم ، والذى يستقصى أطراف الموضوع قبل أن يحكم، فيسير عليه أن يعلم، وأنه لقمين إذا علم أن يقسط ولا يظلم ، وأن يقر بالفضل اكبر الفضل للفارس المعلم،الذى أوقع ساسة انجلترا فى فخ محكم ، وقضى على آمالهم فى السودان القضاء المبرم ، فما لهم بعدها من بقاء إلا على بركان يوشك فى كل حين أن ينضرم .

انفرد الإنجليز بالحكم فى السودان « فعليا » منذ سنة ١٩٤٣ فجعـلوا يكررون فى آذان السودانيين أن مصر تريد السودان مستعمرة ، وأن تمسكها « بالسيادة » على السودان من قبيل لاستعباد ، وأما الانجليز فيريدون « ترقية » السودان ، حتى

يكون أهلا لحكم نفسه ، فيتولى الوظائف أبناؤه ، لا يختص بها ابناء مصر دونهم .

وبدأت بالفعل توهم باتباع هذه السياسة ، فولت الوطنيين وظائف كانت قبلا فى يد انجليز ، كوظائف التفتيش فى بعض المناطق ، وبعض وظائب القضاء وما إلى ذلك . ثم شاءت أن تزيد فى الايهام ، وأن تخرج الحكومة المصرية بضربة واحدة فتصيب ثمرة مزدوجة ، فأعلنت رغبتها فى منح السودان دستورا داخليا وحقوق تمثيل نيابى ، متوهمين أن النقراشى سيرفض هذا ، فتكون البينة على سوء دخيلة المصريين ازاء أهل السودان وتنصرف قلوب هؤلاء عن مصر إلى غير رجعة .

ولكن قرم السياسة الحصيف ، رد هذه الضربة بضربة من قبيلها ولكنها أقوى وأحرج ، فنادى أن هذه الحقوق المعروضة منقوصة ، ولا تكفل حرية صحيحة ، ولهـــذا فمصر تقترح توسيع هذه الحقوق ، وتوسيع اختصاص المجلس النيابى حتى يكون سلطة فعلية .

ورأى الانجليز أن إجابة مصر إلى هذا ، فيهـــا إشعار للسودانيين أن مصر هى التى تعمل لصالحهم ، فتكون اتجاهات

الانتخاب مع مصر ، أى فى صالح الوحدة .. إذا علم القاصى والدانى أن مصر جادة فى تسـوية السودانيين بالمصريين فى الحقوق ، وانها حاشا أن تريد السودان ضيعة لها أو مستعمرة فيحبط كمين الانجليز الذى انفقوا السنين فى نسجه وحبكه ، فلم يبق لهم الا رفض اقتراح مصر ، فعلم القـاصى والدانى فى السودان ، أن انجلترا ليست جادة فى ترقية السودان وتمكين أهله من الحرية ، وان مصر هى التى تريد لهم هذا لا انجلترا .. وان انجلترا هى التى تقف فى الطريق . فاتقدت القلوب حماسة للوحدة وغضباً على المستعمر الدخيـل ، وبدأت الأقطار السودانية تتمخض بالثورة على هؤلاء الذين حسبوا انهم أساطين السياسة وانهم غالبو مصر فى ميدانها العويص .

وما دامت الحركة الوطنية فى السودان قد قامت بعد هذه الجولة السياسية التى جالها النقراشى ، فقد أصبح حتما أن السودان لم يعد دار أمان واستقرار للأسد البريطانى ، وأن حلمه العتيد، أن تكون الامبراطورية الأفريقيـة التى مركزها السودان عوضا عن الامبراطورية الهندية التى طاحت بها يد الزمان ، قد بددته هذه اليقظة المرة ، من يد النقراشى القوية القادرة . فاذا الدار الآمنة هوة فاغرة ، وغابة تموح بالآساد المخدرة .

وهكذا جعل النقراشي أيام الإنجليز في السودان معدودات، وهيهات أن يستقروا بعدها فيه هيهات . وجعل القلوب تهفو إلى يوم تتحقق فيه الوحدة ، وما اصطلحت القلوب على نية إلا حققها الله . وهكذا اتجهت القضية نحو الحل ، وعلى اخواننا السودانيين وعلى الزمن بقية الأمر ، وإخواننا معنا ، والزمن معنا ، لأن الزمن نصير الأحرار ، ولان الله يبشر الصابرين الصادقين بعقبى الدار .

obeikandl.com

وإنك لعلى خلق عظيم

تولى الشهيد العظيم منصب الوزارة مرات ، ورأس الوزارة مرتين ، فلم يترك لبنيه فى يوم مصرعه إلا ثلاثة جنيهات ، فلا مال ولا نشب ، ولا ضيعة ولا قصر ، ولم يكن ذلك عجزا منه عن تحصيل المـــال بالحرام أو الحلال ، فقد كانت تحت يده الأموال بالملايين ، لايسأله عنها سائل ، يتصرف فيها ولا رقيب فى أبواب الحرب أبان حملة فلسطين ، وكانت تحت يده مسائل المشروعات الكبرى من خزان أسوان إلى ينابيع البترول يثرى منها دون أن تثبت عليه التهمة ثبوتا قانونيا ، وكان هذا حسب غيره فى مكانه كى لايتورع عن الاثراء فى غير وناء ... وكانت بين يديه مصائر أغنياء اسرائيل فى مصر . وأسباب رزقهم الكثيرة يشترون اغضاءه عنهم بالكثير ولا يستكثرونه فى سبيل ذلك ولايثبت عليه من هذا كله مايدينه أو يحرجه بسند من القانون.

ولكنه النقراشى ...

وان من أعدائه السياسيين من لا يتورع عن فرية، ولكن الخيال يقصر عن هذا الأفق العالى الذى لا يمكن أن يرقى إليه الشك ولو استعار جناح الوهم.

وأشرف من هذا وأعجب، إذا كانت ثمت ماهو أشرف منه وأعجب، حكاية شركة القناة، فقد عرضت عليه عضويتها بمكافأة سنوية قدرها نحو سبعة آلاف جنيه ذهبا، فيما قبل هذه الحرب وهى ثروة طائلة، ولا جناح عليه فيها، فالمنصب يجب أن يليه مصرى، فاذا أضيف إلى هذا أن النقراشى يومئذ لم يكن يملك إلا معاشه الذى لا يتجاوز الأربعين جنيها ولعله لا يبلغها وهو وزير سابق، يعيش فى حدودها عيشا متواضعا جدا ... لأنه كان يقتطع من هذا المعاش الهزيل رواتب ثابتة لأسر الشهداء من رفقاء الجهاد فى الثورة المصرية. فأى قيمة كانت لهذه المكافأة المغرية فى نظر أى إنسان فى مثل ظروف النقراشى؟

نعم فى نظر أى إنسان فى مكان النقراشى ... أما النقراشى فليس فى هذا كأى إنسان، إذ ليس للمال قيمة عنده إذا كان الثمن هو عضوية شركة، فقد كان يعلم أن المقصود بالعضوية

غير الظاهر من أمرها ... فكيف وهى شركة القناة ، تلك القناة التى كانت من أول أسباب البلاء على استقلال البلاد ؟

ورفض النقراشى دون أن يختلج له بالتردد جفن .

وهذه هى النزاهة التى تسمو فلا يلحقها خيال ولا يعلق بها وهم ...

وهى ذروة الزهد التى لا يرتفع فوقها مرتفع ...

ولكن الزهادة وحدها ليست دليلا قاطعا على مزية إنسانية ، فمن الزهد مايخفى وراءه جفاف طبع ، وقسوة قلب وخمود إحساس ، أما زهادة النقراشى فزهادة يزينها العطف الإنسانى ، والوجدان الرقيق ، والوفاء ، والنبل والرحمة ، فهى مزايا قلب كبير وفطرة كريمة ، قبل أن تكون فضائل عقل وتربية ومجتمع .

فمن منا لم يتحرك قلبه يوم عاد الرئيس الشيخ طائرا من أمريكا ، على أثر المعركة الحامية التى عفر فيها الليث فى مجمع

الأمم ، فاذا به وهو متعب لايلم بداره التى استودعها أقرب الناس إليه من حليلة وولد ، بل يخرج من المطار إلى حضرة المليك الكريم ، ويخرج من هناك لا ليخلد إلى الراحة ، بل ليرأس « مجلس الكوليرا » فيراجع التدابير المتخذة للمقاومة والتحصين .

ويحل العيد فى أعقاب ذلك ، فينعم كل طفل له أب بحنان أبيه وإيناسه فى تلك الليـــلة المباركة ، إلا طفلان « هانىء » و « صفيه » .. فان أباهما العظيم كان يقضى ليلة العيد مع قوم رآهم بقلبه الكبير أحوج إلى رعايته وحدبة ، هم صرعى الوباء وناهيك بالكوليرا من وباء تصغر فى جانبه الملاريا حتى تكون كلهو الأطفال .

وهكذا يسمو الواجب حتى يكون عاطفة لاتكليفا، وعشقا لاعبئا ثقيلا مخيفا ... فهو الواجب الذى يمليه القلب الكبير، لاحكم الوظيفة و « نص الدستور » ...

وهى ذروة النبل التى ليس فوقها موضع لطالب ارتفاع . فلو ملكت مصر أن تطيل عمر النقراشى بأعمار عشرات من بنيها لما قامت إلا ببعض حق هذا الرجل النبيل ..

ولكن مصريا ـ وأسفاه ـ استكثر الحياة على ابى هانىء .

ولكن مصريا ـ واخزياه ـ جازى « هانئا » و « صفيه » على هذا الصنيع ، باليتيم الباكر الوجيع ...

ولئن كانت هذه الذروة هى القنة العليا فى فضيلة الحاكم العظيم فتمت قمة أخرى سما اليها النقراشى الانسان، المتجرد من كل صفة وشارة الا انه من آحاد الناس:

كان للرئيس خادم قديم عهد بخدمته ادركه قضاؤه ، فكفله الكفالة الاخيرة سيده الكريم.

وكان هذا حسب أى سيد وفى كريم . . ولكنه لم يكن حسب النقراشى وفاء وحفظ وداد ، وشعوراً بالصلة الإنسانية التى لاتعرف الفوارق الاجتماعية .. فخرج الوزير الأول يشيع خادمه فى موكب أكبر من فيه طاه أو قائم بباب !.. وشارك بنفسه فى حمل الرجل الذى طالما حمله حياً بالقيام على خدمته وقضاء حوائجه .. ووقف أمام اللحد يرقب تسويته له كى يضمن له الراحة فى مستقره الأخير ، برآ به وحناناً !

فعل هذا ، ولم يدع المصورين ، ولم ينشره فى الآفاق ، ولم يتحدث به إلى إنسان .. ولولا انطلاق لسان خادم متعجب

بالكلام عن هـذا الذى أدهشه فى جنازة زميله ، لظل الأمر سراً مدفوناً ! !

وذلكم هو القلب الكبير صـدقاً لارياء .. يفيض منه الحنان والوفاء ، لأنهما معـدنه وعنصره المكنون لا لأنهما شىء مطلوب ينتظره منه الناس !

وتلك ذروة الوفاء والأريجية التى لا يرتفع فوقها مرتفع .

جريرة أخرى من جرائر استحق بها « هانىء » و « صفية » عقوبة الحرمان من هذا الأب العطوف .

ولئن قيل أن للخادم مولى له على سيده حق الألفة والعشرة الطويلة ، فليس الأمر كذلك مع سائق عربة من عربات الجر ، كان ينقل عليها متاعاً ثقيلا ، وآده عبور « مزلقان » سكة حديد يعترض طريقه ، فجعـل يدفع العربة ليعين دابته على اجتياز الشريط الحديدى بلا جدوى ، فإذا سيد كان يعبر الطريق فى سيارته ينزجل منها ، فيخلع سترته ، ويشمر عن ساعديه ، ويدفع مع الرجل العربة ، ويحمسه على التشدد فى الدفع كأنه هو صاحب الشأن ، حتى اجتازت العربة « المزلقان » !

هذا الرجل هو « النقـراشى » رئيس الوزراء ، والحاكم

العسكرى ، وصاحب الدولة والسلطان .. ولكنه أولا وقبل كل شيء : النقراشى ، المثل العالى للإنسان !

ولا يخطر ببال الرجل أن النقراشى هو صاحب هذه اليد الصادرة عن قلب كريم مطبوع على النجدة .. ولا يتصور إلا أنه « افندى » على أكثر التقدير ، فيدعو الله أن ينصره ليصبح « بيكاً » ! !

ويضحك النقراشى ويمازحه ، فيعلق على دعائه بقوله :

— وفر دعاءك ! فهو غير معقول .

وهذا مزاح رقيق ، ولكنه صدق كله على وجه التحقيق .

ويقول الرجل مؤكداً الدعاء :

— ولماذا اليأس ؟ إنك تستحق العلا ، وليس ذلك على الله ببعيد ، ففضله واسع !

ويضحك ـ رحمه الله ـ ويقول مرة أخرى :

— ولكن ما تطلبه لى ياعم غير معقول !

ويمضى بسيارته عن الرجل المذهول ...

ألا إن هذه ذروة من النجدة ليست فوقها ذروة يطمع فى بلوغها مطبوع على النجدة والإحسان .

وهى جريرة أخرى استحق بها « هانىء » و « صفية » أن يحرما من نعمة الأبوة فى غرارة الصبا ونعومة الأظفار . . .

وبقيت ذروة من « الشعور الإنسانى » يرتفع إليها مرتفع ، إذا قدر الارتفاع لبنى الإنسان فوق هذا الأفق البعيد !

انتصف الليل وأربى ، وقارب الصبح أن يتجلى ، ومجلس الوزراء منعقد ، ينظر فى مشاكل الحرب ، ومشاكل العملة ، وتيارات السياسة المتعارضة تعارضاً لم تعرف مصر له نظيرا فى تاريخها الحديث . . !

وخرج النقراشى من الاجتماع ليأوى إلى بيته الذى ينتظره على مضض ، وقد أخذ منه التعب حتى بلغ حد الإعياء ، لولا جلد الرجل العجيب . . وإذا بالرئيس يقف أمام باب المصعد فلا يدخل ، ويرهف السمع لصوت مواء ، ثم ينظر إلى مصدره ثم يلتفت مزمجراً زمجرة الأســـد الغاضب إلى رجال حرسه الساهـــرين :

— هل نزعت من قلوبكم الرحمـــة ؟ . . هذه هرة جاءها المخاض وهى تموء من البرد والجوع !

ولم يدخـــل الرئيس المصعد ، بل بقى حيث هو ، وأرسل

أحد الحجاب يبحث ـ فى هذا الوقت من ليل الشتاء القارص ـ عن صندوق فارغ ، وقطن وقش .. وقدر من لبن ؛ اشتراها من جيب الرئيس . . لتدفأ الهرة من قر ، وتشبع من جوع ، وتلد صغارها فى أمن !

وإذ تم هذا بين سمعه وبصره ، ذكر الرئيس الذى تشغله وتهده مشكلات الحرب والسياسة والاقتصاد، ومناورات الدول والأحزاب .. أنه متعب ، وأن له زوجا ساهرة تنتظر أوبته ، وأنه فى حاجة إلى الراحة والطعام والنوم .

وتلك ذروة الرحمة التى لا يرتفع فوقها طالب ارتفاع !

فان وقفته هذه أمام قطة يهزه مخاضها هذا الهز العنيف ، ويشغله أمرها عن نفسه ، وفى أى حالة ، وعن شواغله ، وفى أى ظرف ؛ لأكرم وأسمى وأعظم وقفة وقفها إنسان . . إنها لأدنى مواقف الإنسان من عرش الرحمن . . فهى مرتبة الذين كرمهم الله ، وطهر قلوبهم ، واصطفاهم على العالمين . . فارتفع بهم إلى أعلى مراتب الصديقين ، وناهيك بها من مرتبة تعز على المرتقين !

وعسير بلوغ هاتيك جدا تلك عليا مراتب الانبياء

شهيد باختياره

من الناس من ولد للشهادة ، ومنهم من تأتيه الشهادة عرضا، فضل الله يؤتيه من يشاء بغير حساب .

والفريق الأول هو فريق الشهداء المطبوعين ، فريق من فطروا على الأريحية ، تفرض نفسها عليهم فيعيشون لنصرتها ولو عزت وعسرت ، فيموتون فى سبيلها راضين ، فهم شهداء فى حياتهم وفى مماتهم على السواء ، يلاقون فى الحياة الأهوال ويدوسون أكداس الأموال ، ويعزفون عن الزخارف التى يقبل عليها الناس كافة أيما اقبال ، وهم على المحنة صابرون .

من هـذا الطراز « ابو الشـــهداء » الحسين بن على، وكل شهيد اريحى ، تحدى الدنيا فى سبيل عقيدته وهو حى ، لا يثنيه عن ذلك إعنات ولا ينال من عزمته لأى، حتى يختمها بشهادة الدم ، فتنتظم سيرته من البداية إلى المنتهى تمثالا للفداء الـكامل

المقصود ، أقبل عليه مختارا ، مؤثرا الاعنات على الامن والسلامة والثراء ، معرضا عن عروض هو اليها فقير .

وهكذا الشهيد باختياره ، وكان فى وسعه لو شاء أن يختار الخطة الأخرى ، ولكنها فطرته التى فطر عليها . لافكاك له منها ولا مندوحة له عنها .

وقد كان النقراشى ـ رحمه الله ـ ريحانة هذا الطراز الرفيع من الشهداء ، كان رحمه الله شهيدا باختياره ، خير فاختار .

ولن نرجع بالحديث إلى السجن وحبل المشنقة . فتلك واضحة لايعلوها قتام ، ولا يجلوها كلام ، وانما نتحدث عنه فى الدست وزيرا أول وحاكما عسكريا ، تتكاثر عليه النوائح وتترصده أحاديث الافك ، وهو راس كالجبل ، وفى مقدوره أن ينقض فيمحق ، أو يهدر فيخسف .

ولكنه أبى الا الاغضاء ، لأنه شهيد مطبوع .

يدخل عليه مكتبه فى الرياسة هذا الصديق الذى آزر ونصر فيطلب اليه اخراج خصم سياسى من منصبه ، فيثور الرئيس

الوقور حتى يخرج عن وقاره . ويحتقن وجهه حتى تنفر عروقه ويصيح بالنصير الكبير .

ـ لاأفصل مصريا لانه من غير حزبى ، فالوظيفة حقه مادام يؤدى واجبه فيها ولا يبعى بها ،هات لى دليلا على تقصيره اعاقبه أو أفصله إذا استحق الفصل ، أما العقاب لأنه «وفدى» وكنى فوالله لاأفعله أبدا.

وخرج النصير الكبير ، وقد خسره الرئيس المتحرج وكان يعلم أنه سيغضب ، وكان يعلم ان الذى أغضبه فى سبيله لن يعلم وإذا علم لن يشكر ، ولكنه فعلها لوجه الحق ، لا لوجه الشكر أو ابتغاء الكسب .

وهذه فطرة الشهيد باختياره ، يخسر الأصدقاء ولا يكسب الأعداء ، ولكنه يكسب رضوان طبيعته المستقيمة .

وتقرر مصر الاحتكام إلى مجلس الامن ، ويعد النقراشى عدته لعرض القضية ، وتتصايح الأفواه « الغيرى » على قضية مصر ـ ومنهم المطعون فى مجرد مصريته ـ ويتبعهم الناعبون اللاغطون من مطايا الشيطان :

« لماذا لايعرض النقراشى القضية فى التو واللحظة ؟ وفى

العالم برق سلكى وغير سلكى ، ونحن فى عصر السرعة التى تخف على جناح الطير .

ويسكت النقراشى لايجيب ، والجواب معروف لمعظم المألبين الآفكين ، أما سواد الناس فلا سبيل إلى التصريح لهم بسبب التريث ، وهو لوعرف لكان فخرا للنقراشى فان للدول العربية أصواتا فى هيئة الأمم لابد لنا منها ، ويمكن ضمان مؤازرتها التى لاشك فيها ،فواجب الكياسة ومقتضيات الحلف والتعاون تقضى علينا أن نطلعها على خطتنا ، ونتفق على وسائل تنفيذها،فكان لابد من انتظار اجتماع اللجنة السياسية للدول العربية.

واجتمعت اللجنة واستقر الرأى على الخطة ووسائل التنفيذ ، وتجددت الصيحات الأولى متلهفة لاتطيق صبرا أسابيع معدودات بعد صبر على القضية والخصومة فيها عشرات السنوات .

وبماذا كان يجيب النقراشى ؟ أتراه كان يقول لهم :

— أنتظر أيها الناس أن يأتى دور سوريا فى رئاسة المجلس فيتولاها فارس الخورى ، وهو صديق وحليف ، ولا ريب أننا سنلقى منه اثناء رياسته عونا صادقا فى مناورات السياسة

التى يكون تأثير رئاسة الجلسة فيها بعيد المدى !

هل يقول هذا فيحرج الرجل ، أم يسكت فيحرج وهو ساع للمصلحة الوطنية متحر أسبابها ؟

يعرف رؤوس الفتنة هذا السبب ، ولكنهم يعرفون أنه مما لا يصرح به وطنى شريف حريص على نجاح قضية بلاده فينتهزون للتنديد والافك فرصة كان الأولى أن تنتهز لتأييد الرجل وتكريمه حتى من اعتى خصومه ولكنهم اختاروا لأنفسهم أن يستغلوا انطباعه على الشهادة ، وايثاره اياها على التفريط فى الامانة ، والبوح باسرار تمس مصالح الدولة ، فكانوا حربا عليه بسلاح نبله وأمانته وفدائه .

وتتقدم الأيام ، حتى تتحرج الأزمة الفلسطينية ، ويبدأ الثوار العرب والمتطوعون فى التمهيد للدولة العربية بعد زوال الانتداب الذى اشرف على الإنتهاء ، وليس بوسع مصر أن تناصر رسميا ثواراً على حكومة لاتزال لها الصفة الرسمية ، وهى حكومة انجلترا ، فتكتفى مؤقتا باعتماد مبلغ لشراء السلاح والمعونة المادية ، هو ٤٠٠٠٠٠ جنيه ، وتجمع رؤساء الأحزاب والبرلمان وتطلعهم على حقيقة هذا المبلغ وتبين لهم أن لا مندوحة

من وضعه تحت بند المصروفات السرية لهـــذه الأسباب الدبلوماسية ، فيقرونها جميعا .

وتطلع الصحف فى الغداة ، وإذا الصحيفة الناطقة بلسان أحـــد الساسة ، وقد سودت صـــدرها بعنوان ضخم « نصف مليـون جنيـــه تعتمدها الحكومة لشراء الذمم والأقـــلام . »

فالرجل آمن أن يفضحه النقراشى الأمين على أسرار الدولة ومصالح العروبة وان أصيب شخصه برشاش ظالم .

وهكذا يتفشى حديث الإفك ، وقد احتمى صاحبه بيقينه بتضحية النقراشى وتقديمه واجبـــه على شخصه مهما كانت الأحوال ، لأن خصـــومه الذين عرفوه عن كثب ، كانوا موقنـين أنه شهيد باختياره ، مطبوع على الشهادة .

ويقوم النقراشى بإتفاذ مشروع حيوى ؛ لازم أشد اللزوم وبأسرع وقت ، ولـكن رجالا يقفـون فى الطريق ، يبغون تعطيله ، مطالبين بتمريره عليهم ؛ بغير وجه من حكم الدستور

لهذا التمرير ... ويلجون فى الكلام ؛ ويلحون فى الملام ... حتى يطفر الدمع من عين الرجـــل العظيم الراسخ الإيمان الثابت الجنان ... فهو مدرك اسباب هـذه الزوبعة ؛ ومن أين تهب ؛ ولأى غرض ... وكان فى وسعه أن يكبت المتهجم ... ولـكن ماذا يقول الناس عن رجالات مصر فى الخارج إذا انكشفت الخبايا وعلمت دخائل النوايا ؟

ليسكتن ، وليظلمين ؛ وليكونن فى هذه كما كان فى كل أمر ؛ الشهيد باختياره ؛ لأنه مطبوع على الشهادة .

وتغضب فئة تعودت أن تدس الحكومات فى يدها الرواتب ، رضيخة للكويتب والكاتب ، لتعدد المناقب ، أو تستر المثالب ...

ولـكن النقراشى لا يرى الأيدى الممدودة ، ويتركها مفتوحة الراح ، فتتضافر الايدى من جميع الالوان والاحزاب للانتقام من هـذا الرجل الذى اخلف الظن ، المستهين بقاعدة إغضاء العين باطعام البطن .

ولـكن ماذا يقول العدو فى رجـل كأنه يرى الله بعينيه ؟

ليطلقوها « بدعة » فى الاراجيف والاقاويل ؛ وليطبلوا بها فيألفها الهمل بطول التطبيل ؛ وليس بين الإلفة والتصديق إلا شوط قليل .

« سياسة الصمت »

« سياسة الفم المقفل » .

وليس الصمت عيباً فى حاكم ووزير يخاصم الانجليز ويخاصم اليهود ؛ ويخاصم صنائع هؤلاء وهؤلاء ولا سلاح فى يده غير السياسة والحيلة . ولا تكون حيلة مع الكلام ، ولا تستقيم سياسة مع الإفشاء .

وما من وزير فى الدنيا كلها عمله وهمه التحدث بنواياه ؛ وبخططه وطواياه ، ومخاوفه وخفاياه .

ولكنهم يريدون بهذا الارجاف شيئا يعرف الأريب معناه ، ولعله يلين لهم فيتوقاه ، فتسكت تلك الاصوات التى بحت لغير وجه الله .

يريدون أن يفهم ان الأقلام لسان الوزراء ومجنهم ؛ تذود عنهم ، وتشرح فضلهم وسياستهم بقدر الإمكان ، فيحس أن يشترى هذا اللسان ، وأن يتخذ هذا المجن .

ولكن النقراشي يفعل واجبه حسبة ، ولا يعرف إلا أن خدمة الوطن واجب وحسبة ، فكيف يؤجر وطنياً على خدمة وطنه إذا قال الحق ، وكيف يؤجره على خيانة وطنه بكتمان الحق ؟!

ليتهموه بالصمت ما شاءوا

وليهلل وراءهم الصبيان ماشاءوا

فانه على طويته لايتغير ، لايحزنه أن يظلم فى الحق ولا يعذر.. بل لعل هذا يرضيه ، لانه شهيد باختياره فى كل مقام ، مطبوع على الشهادة غير مقهور .

وما هذه إلا نماذج مما لقى من اصحابه وعاداه نذكرها على سبيل التمثيل لا الاحصاء والتسجيل لينبين كيف كان « ريحانة الشهداء » شهيداً منذ برز لهذا الأمر ، موطن النفس على الشهادة لاينحرف عنها ، وانما يستقصى اسبابها استقصاء .

يا يوم كربلاء !

وتتم أسباب الشهادة المطبوعة ، شهادة الخيرة والاختيار بالعمل الذى يكون معنى الأقبال عليه الموت لا يكاد يكون منه مفر ، لاتحسب أحدا يقدم عليه من الناس وهو يحرص على حياة ، إلا الشهيد الذى ولد للاستشهاد ، كأن له عند الموت هوى غالب عليه، فانه يقدم ولا يستأنى ، على انفساح الطريق أمامه لو شاء أن يتخذ أخرى غير التى فيها الموت بمكمن، ويبصره المبصر ، ويحتال على اثنائه الصديق المشفق ... ولكنه يرى رأيهم غريبا ، ويرى غير الذى انتواه ضربا من المحال ، بل ضربا من الهزل والمجـــون والخسة ... فيمضى إلى غايته فى أنف الكريم ، وإنما

أنف الكريم من الدنية تارك ... فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض، وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا

هكذا مضى أبو الشهداء الحسين بن على إلى كربلاء ، ثابت القدم ، موطد العزم ، وكانت أمامه ـ فى وهم الناس ـ عن الاقدام مندوحه ، وأما فى يقينه فليس أمامه إلا الذى عقد العزم عليه ...

وأين له عن ذاك؟ لاأين! أنه اليه بعرقية الزكيين محرج
كدأب على فى المواقف كلها ـ أبي حسن ـ والغصن من حيث يخرج

وكذلك فعل ريحانة الشهداء ، أبو هانىء ، محمـــود فهمى النقراشى ، وهو غصن من أرومة الشهداء المطبوعين ، مكانه منهم فى الذؤابة ولامراء ... أقدم مفتوح العينين على المصير المحتوم ... ولو كان فى مكانه غيره لاختار غير الذى اختار

ولـكنه أبو هانىء ..

ولـكنه الشهيد المطبوع .

ولـكنه ريحانة الشهداء .

ليس له عن ذاك أين ، فاقبل على الموت صاحى القلب قرير العين وبذل نفسه حيث يضن سواه بالفداء ، . وحمى أمته بهذا الدم المسفوح ظلما من أوخم نـكسة فى تاريخها كله ، وكتب فى صفحة

القداسة ، فضلا عن سجل السياسة ، سطراً من أمجد السطور وهو ولا شك أقربها إلى القلب الكريم والنفس الابية . وسيذكر بالإجلال والخشوع وعرفان الجميل ما عرفت للفداء فى هذه الارض حرمه ، وما هفا إلى القداسة وذرى الفضائل العالية والمزايا النفسية فؤاد ، وما أكبرت البسالة والبطولة والاريحية فى نفس انسان .

أدرك الشهيد أى كيد يدبر لمصر فى الخفاء ، يأتى على تراثها العقلى والاجتماعى واستقلالها الخارجى والداخلى . ويلقى بها فى وهدة تتردى بها أجيالا من الزمان إلى وراء . . وسبحان من يعلم متى تنهض منها وكيف لنا منها النجاء ! ؟

وكان يعلم أن الشر استشرى ، وأن مكامن الخطر خافية خفاء الصلال الصفراء فى رمال الصحراء . . وأن يد شيطان الفتنة قوى ذراعها طويل باعها . . وأن دون القضاء عليها حرب أهلية ؛ إن لم يجعل صدره مجناً النظام ؛ مبادراً بالخطة التى هى أحزم !..

ولو غيره لساوم الشيطان طويلا ، ليؤجل ضربته قليلا ..

حتى يترك الحكم ناجياً معافى ؛ ويدع النار لغيره يصلاها !

وكم خذله المخذلون ايختار هذا الطريق ؛ ففيه الامن له والعـــافية . .

ولـكنه من أرومة الشهداء المطبوعين ، والغصن من حيث يخرج كما يقـــول ابن الرومى . . فلا أين له عن شرعة الشهداء ، ولا حيـــلة له فى معاداة أهل الفتنة . . أما مساومتهم فهى فى سريرته خسة وتواطؤ على الشر والفساد . .

وأنه ليعلم أنه لو تمهل قليلا ، أو تردد قليلا لضرب الشيطان ضربته ، وقد تشعبت مكامن زبانيته فى كل مصلحة وكل مؤسسة وكل مكان فى الريف والمدن ، ولذهبت مصر طعمة للنار !

رأى هذا ببصيرة تنفذ إلى أعماق السرائر ومحجبات الطوايا.

فتدبر الامر بسريرة أهـــل الشهادة المطبوعين عليها . . المدفوعين إليها .

فأمر بحرب الشيطان ...

ولـكنه أجل الإعلان بضعة أيام ...

أتدرون لماذا أيها النـــاس ! ؟

لأن فى مؤسسات تلك الجماعة عمالا أبرياء يرتزقون ؛ فيحسن أن يدبر لهم عملا يعيشون منه وعيالهم قبل أن يسد فى وجوههم هذه الابواب !

لتصغر الدنيا بما فيها أمام هذه العظمة وتلك الاريحية !

لتصغر الدنيا بما فيها فلا تكون شيئاً أمام هذا المعدن الغريب الذى لا يعرف له ضريب بين كرام النفوس وكبار القلوب !

ولا يكون إلا هكذا ريحانة الشهداء !

فلما حان أن يأمر ولم يبق للاناة موضع حاول صديق مشفق أن يخذله ، فلم ينخذل ، فتذرع بالموت كأن الموت يخيفه ولا يستثير فيه الحمية والاقدام . فقال له :

— « إنى أخاف عليك أن تقتل . . ولك ابناء فى حداثة العمر وغرارة الصبا الناعم »

فنظر اليه الشهيد وسأله فى إناة .

ـ أصديقا تنظر إلى إذ تخذلنى عن هذا الامر أم تنظر إلى نظرك الى وطنى ؟

فلم يجد صاحبه مندوحة من الجواب :

ـ بل صديقا انظر إليك إذ أقول هذا .

ـ وإنى لشاكر لك خوفك على . . . ولست عن الخطر بغافل ، ولكننى أباشر هذا الامر وطنيا لا صديقا ولا أبا ، وإنى مع هذا لعاتب عليك . فان الصداقة الحقة كان ينبغى أن تردك فلا تطلب الى صديقك مايخل بواجبه الوطنى . أم ترانى أرضى لنفسى ان أقول لأبنائنا فى سن العشرين طيبوا نفسا بالموت فى ميدان فلسطين ، وأتقاعس أنا الشيخ فى الستين عن الموت فى سبيل مصر وحدها .. لأنا إذن أخس الجبناء . وما أحسبك تريد صديقك جبانا . وما احسب ابنائى بحاجة الى أب جبان . ولست فى ريب من أمرهم فالله يرعاهم فى حياتى وموتى.

وهكذا يكون ريحانة الشهداء ..

وحل اليوم المشئوم ، وحم القضاء المحتوم ، وتمت الشهادة كأكرم ماتكون الشهادة ، للرجل الذى عاش شهيدا لايميل

عن سبيل الشهادة ، حتى كانت تلك النهاية الخاتمة الطبيعية لتلك الحياة النادرة المثال فى تاريخ الاحياء

حل هذا اليوم فكان توأماً حديثاً ليوم كربلاء . كلاهما كانت الشهادة فيه عن خيرة واختيـــار ؛ وكانت الاريحية فيه صـــامدة للخسة المقيتة وللغدر المذرى .. وكلاهما كان الاقدام عليه ذروة البطولة والاقدام ، وغاية المدى من شجاعة الإيمان .

وأنه ليصدق على اليومين على السواء قـــول صاحب « ابو الشهداء » :

«ليس فى نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا الزم له من الأيمان والفداء والايثار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد فى المحنة والانفة من الضين والشجاعة فى وجه الموت المحتوم ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط فى موطن من المواطن تجليها فى تلك الحوادث التى شاء القدر أن يكون فى جانب منها أشرف مايشرف به أبناء آدم ، لانها فى الجانب الآخر منها اخزى مايخزى به مخلوق من المخلوقات »

ولقد توالت الحوادث بعد هذا اليوم . فعلم الناس أى شر حماهم منه باستشهاده هذا الشهيد ، وليس غريبا أن يرى حاكم

خطرا فيريد أن يدفعه ، ولكن الغريب هو دفعه بالاستشهاد فى غير تردد ، ولا من ، ولا استكراه .

غريب نعم هذا العزم والاقدام .

غريب نعم لانه شيمة الشهادة المطبوعة فى فطرة المولود من أجلها الميسر لها ، فكانه ماسعى فى حياته الا اليها ، يتخطى اليها الحوادث ، ويتوسل اليها بجميع الوسائل .

رحم الله أبا هانىء ، فقد كان حقا ريحانة الشهداء ...

رحمه الله ورضى عنه وأرضاه ، فقد ارتضى له هذه النهاية وأهله لها منذ البداية ، ليكون ذروة فى الشهادة لا يرتفع إلى مافوقها مرتفع ، وقطبا للهداية والتعذير لاتعشى دونه عين ولاينكر نوره قلب ، ولايصد دونه وجدان .

رحمه الله ، ورحم مصراً بشفاعته من جرائر مصرعه ومحا بشرف سيرته تلك الوصمة التى تجلل شعبا باسره بالخزى والعار ؟